ترصيع بالذهب على سيف دمشقي

شعر: نزار قباني

أتراهـا تحـبني ميسون..؟   أم توهمتُ والنساء ظنون

كم رسول أرسلتهُ أبيها   ذبحتْه تحت النقاب العيون

يا ابنة العمّ... والهوى أمويّ   كيف أخفي الهوى وكيف أُبين؟

كم قُتلنا في عشقنا وبُعثنا   بعد موت وما علينا يمين

ما وقوفي على الديار وقلبي   كجبيني قد طرزته الغضون

لا ظباءَ الحمى رَدَدْنَ سلامي   والخلاخيل ما لهن رنين

يا زماناً في الصالحية سمحا   أين مني الغِوى وأين الفتون

يا سريري، ويا شراشف أمي   يا عصافير، يا شذا، يا غصون

يا زواريب حارتي خبئيني   بين جفنيك فالزمان ضنين

واعذُريني إذا بدوتُ حزينا   إن وجهَ المحبِ وجه حزين

ها هي الشام بعد فرقة دهر   أنهر سبعة وحُورٌ عين

النوافير في البيوت كلام   والعناقيد سكّرٌ مطحون

والسماء الزرقاء دفتر شعر   والحروف التي عليه سنونو

هل دمشق كما يقولون كانت   حين في الليل فكّرٍ الياسمين

آه يا شام كيف أشرح ما بي   وأنا فيك دائما مسكون

سامحيني إن لمِ أكاشفك بالعشـ   ـق فأحلى ما في الهوى التضمين

نحن أسرى معاً وفي قفص الحب   يعاني السجان والمسجون

يا دمشق التي تقمّصتُ فيها هـ   ـل أنا السرو أم أنا الشربين

أم أنا الفل في أباريق أمي   أم أنا العشق والسحاب الهتون

أم أنا القطة الأثيرة في الدا   ر تُلبّي إذا دعاها الحنين

يا دمشق التي تفشّى شذاهـ   ـا تحت جلدي كأنه الزيزفون

سامحيني إذا اضطربتُ فإنيِ   لا مُقفّى حُبّي ولا موزون

وازرعيني تحت الضفائر مِشطاً   فأريكِ الغرام كيف يكون

قادم من مدائن الريح وحدي   فاحتضني كالطفل يا قاسيون








احتضني ولا تناقشْ جنوني ... ذروة العقل يا حبيبي الجنون
احتضني خمسين ألفاً وألفاً ... فمع الضمّ لا يجوز السكون
أهي مجنونة بشوقي إليها ... هذه الشام أم أنا المجنون؟
حاملٌ حبَّها ثلاثين قرناً ... فوق ظهري وما هناك معين
كلما جئتها أردُّ ديوني ... للجميلات حاصرَتْني الديون
إن تخلَّت كلُّ المقادير عني ... فبعينَيْ حبيبتي أستعين
يا إلهي جعلتَ عشقي بحراً ... أحرامٌ على البحار السكون؟
يا إلهي هل الكتابةٍ جرحٍ ... ليس يُشفى أم مارد ملعون
كما أعاني في الشعر موتاً جميلاً ... وتعاني من الرياح السفين
جاء تشرين يا حبيبة قلبي ... أحسن الوقت للهوى تشرين
ولنا موعد على جبل الشيـ ... ـخ كم الثلج دافئ وحنون
لم أعانقكِ في زمانٍ طويل ... لم أحدّثك والحديث شجون
لم أغازِلكِ والتغزّلُ بعضي ... للهوى دينه وللسيف دين
سنواتٌ سبع منِ الحزن مرت ... ماتِ فيها الصفصاف والزيتون
سنوات فيها استقلتُ من الحب ... وجفتْ على شفاهي اللحون
سنوات سبع بها اغتالنا اليأ ... س وعلم الكلام واليانسون
فانقسمنا قبائلاً وشعوباً ... واستبيح الحمى وضاع العرين
كيف أهواكِ حين حول سريري ... يتمشى اليهود والطاعون
كيف أهواك والحمى مستباحٌ ... هل من السهل أن يُحِب السجين
لا تقولي نسيتُ لم أنس شيئاً ... كيف تَنسي أهدابهن الجفون
غير أن الهوى يصير ذليلاً ... كلما ذلّ للرجال جبين
شام يا شام يا أميرة حبي ... كيف ينسى غرامه المجنون
أوقدي النار فالحديث طويل ... وطويل لمن نُحبّ الحنين
شمس غرناطةٍ أطلّت علينا ... بعد يأس وزغردت ميسلون
جاء تشرين إن وجهك أحلى ... بكثير ما سرّه تشرين؟
إن أرض الجولان تشبه عينيـ ... ـك فماء يجري ولوز وتين
كيف صارت سنابلُ القمح أعلى ... كيف صارت عيناك بيت السنونو







كل جرح فيها حديقة وردٍ … وربيع ولؤلؤ مكنون

يا دمشق البسي دموعي سواراً … وتمنّيْ فكل صعب يهون

وضعي طرحة العروس لأجلي … إن مهر المناضلات ثمين

رضي الله والرسول عن الشام … م فنصرٌ آت وفتح مبين

مزقي يا دمشق خارطة الذل … وقولي للدهر كن فيكون

استردَّتْ أيامها بكِ بدر … واستعادت شبابها حطين

بكِ عزَّت قريش بعد هوان … وتلاقت قبائل وبطون

إن عمرو بن العاص يزحف للشر … ق وللغرب يزحف المأمون

كتب الله أن تكوني دمشقاً … بكِ يبدا وينتهي التكوين

لا خيار أن يصبح البحر بحراً … أوَ يختارُ صوته الحسون

ذاك عمر السيوف لا سيف إلا … دائن يا حبيبتي أو مدين

هُزِم الروم بعد سبع عجاف … وتعافى وجداننا المطعون

وقتلنا العنقاء في جبل الشي … خ وألقى أضراسه التنين

صدق السيف وعده يا بلادي … فالسياسات كلها أفيون

صدق السيف حاكماً وحكيماً … وحده السيف يا دمشق اليقين

اسحبي الذيل يا قنيطرة المجـ … ـد وكحِّلْ جفنيك يا حرمون

سبقتْ ظلها خيول هشام … وأفاقت من نومها السكين

علمينا فقه العروبة يا شا … م فأنت البيان والتبيين

علّمينا الأفعال قد ذَبَحتنا … أحرف الجر والكلام العجين

علّمينا قراءة البرقِ والرعـ … ـد فنصف اللغات وحل وطين

علّمينا التفكير لا نصرَ يُرجى … حينما الشعب كله سردين

إن أقصى ما يُغضِب الله فكر … دجّنوه وكاتب عِنّين

وطني يا قصيدة النار والور … د تغنّتْ بما صنعتَ القرون

إن نهر التاريخ ينبع في الشا … م أيلغي التاريخ طِرح هجين

نحن عكا، ونحن كرملُ حيفا … وجبال الجليل واللطرون

كل ليمونة ستنجب طفلاً … ومحال أن ينتهي الليمون

شام يا شام غيّري قدر الشمـ … ـس وقولي للدهر كن فيكون






يا شام
حسبكِ في الشموخ تفرداً

شعر: خضر الحمصي

سكرت بعطر رحيقك الأجيال
المجد أنتِ والرؤى تختال
خلع الربيع على مهادكِ حلةً
فاخضرّ كونٌ وانتشتْ آمال
ما للطبيعة قد أباحَتْ سِرّها
فشدا المحبُّ وغرّد الموال
وعلى الدروب مواكبٌ وشّحتِها
بِسنا الجمالِ وزانها الإجلال
مدتْ إليكِ جدائلاً من زهرها
فتضفرتْ سحراً فهام خيال
وتلوحُ من طرفِ الرياض مناظرٌ
فيزينها فوق الجمالِ جمال
فإذا المنى في ظلٍّ وجهكِ سمةٌ
غيرى على شفة الدنا تنهال
ويُطِلُّ فرعُكِ والضياء يلفهُ
نوراً وخلفَ المائساتِ ظلال
(ادمشقُ) يا وطناً على ربواته
يُبنى الخلودُ وتُضْربُ الأمثال
كم في عيونكِ من جمالٍ ناضرٍ
هيهاتَ عرشُكَ في الزمان يُطالُ







فــإذا نظــرتِ إلى الروابــي أمرعــتْ
خِــصْباً وشــبَّ بِــسُفحِها الإقبــال
أبــصرت في عينيــكِ مجــداً خالــداً
فعــشقتُ مجــدَكِ والهــوى قتَّــالُ
ولــد الهــدى والحــق فيــكِ شــريعةٌ
أفأنــتِ إلاّ للخلــودِ مِثــال؟
حققــتِ في مــسراكِ أنبــلَ فكــرةٍ
هـــي للعروبــةِ منهــلٌ ومــآل
وأعــدتِ للتــاريخ زخــم شــبابهِ
وعرفــتِ كيــف تُــزاحمُ الآجــال
فَهَفَــا إليــكِ الخافقــان تحيــةً
رَتــلٌ، تواكــبُ سَــيْرَهُ أرتــال
شــرف المــروءة أن تــصان كرامــة
ويحقــق النــصر الكــبير نــضال
هــذي دمــشق وفي ربــوع قلاعهــا
يهفــو الزمــان وتزهــر الآمــال
يــا شــام عرشــكِ بــالبروقِ مُــضفَّرٌ
سِــرٌّ القلــوب تبيحــهُ الأقــوال
المعجــزاتُ علــى الــدروب منــارةٌ
للنَّــاظرينَ وروعــةٌ وجــلال
يــا شــام حــسبكِ في الــشموخ تفــرداً
مــن ثــدي مجــدكِ يرضــع الأطفــال
لمْ يلتَــئِمْ جــرحُ العروبــة طالمــا
بقيــتْ هنــا بــين الحــدود جبــالُ






(١)

سمّوها في غابر الأزمان "واحة الصحراء" لأن المياه كانت تجري في حناياها... وكان الاخضرار يلوّنها... والزهور تسكنها... والظلال تغلّلها... فيتسرّب من مسامها الأريج، ومن نسيمها الشذى... وتفوح من حناياها الرطوبة العبقة...

ولقبوها بـ "الغناء" بسبب التفاف أشجارها الكثيفة...

ونادوها بـ "الفيحاء"... لاتساعها ورحابتها وبسبب رائحتها الزكية...

وأيضاً وأيضاً بـ "جنة الأرض" لكثرة حدائقها وغزارة مياهها...

(٢)

أما اسمها دمشق... فهناك أكثر من عشرين رواية حول الموضوع، أختار لكم منها الأحلى:

"روى أبو بكر محمد الفرضي، وكان قد أُسر وبقي في بلاد الروم مدة غير قصيرة، أن رجلاً من حكماء الروم قال له:

– إنما سُميت دمشق بالرومية، وإن أصل اسمها "دومسكس"... "دو" للمضعفة و "مسكس" هو المسك أي العطر المضاعف.

ودومسكس هي التي أصبحت دومسك ثم دومشك ثم دمشق.

فدمشق هي المدينة المضاعف عطرها.

(٣)

هذه الزمردة المنغرسة في إطارها الذهبي، كما يصفها الطبيب الباحث الدكتور أنجلوس... استطاعت، ربما بسبب تربتها الخصبة ومناخها البديع ومياهها الحلوة العذبة... وربما بسبب مرور جميع القوافل فيها وبالتالي تنوّع جذورها البشرية... وربما لأنهم اعتبروها فعلاً "جنة الأرض" التي يتعايش فيها الناس على اختلاف مذاهبهم ومبادئهم واتجاهاتهم وميولهم... في محبة ووئام...

قطعة الموزاييك البشرية المتناغمة هذه استطاعت أن تشعّ حضارة... وكانت قادرة دائماً... على أن تضفي روحها على ساكنيها...

حتى أصبحت دمشق المدينة الوحيدة في العالم – أو شبه الوحيدة – التي تستعمل اسمها كفعل...

وصرنا نقول:

دمشق تُدَمْشِقُ ساكنيها...

أي تجعلهم حضاريين متنوّرين...

(٤)

وبالمناسبة

هناك مثل يستعملونه في الغرب، أكثر مما نستعمله في بلادنا... يقولون عن شخص سيئ غيّر آراءه فجأة وأصبح جيداً... (وهذا إشارة إلى القديس بولس الذي بهره النور الساطع على طريق دمشق).

يقولون: "وجد طريق دمشق" Il a trouve le chemin de Damas أي وجد طريق الحق... طريق النور... ووجد نفسه.

إذاً... دمشق هي المدينة التي تنوّر التفكير وتجعل تعامل الفرد مع الحياة حضارياً...

وبعد...

هل من الممكن أن يكون الإنسان المُدَمْشَق أي الحضاري، إلاّ صاحب تفكير واسع الأفق ونفس فياضة العطاء؟

أليس الإنسان الحضاري هو هذا الذي يحافظ على مذهبه ومبادئه ويحترم في الوقت ذاته مذهب الآخرين ومبادئهم؟!

(٥)

هذه الوحدة الوطنية هي التي استطاعت عبر التاريخ أن تردّ عن دمشق كل عدوان وكل فاتح وكل استعمار...

وهي التي رفعت شعار الوطن فوق كل التعديات...

وهي التي أبقت لدمشق ألقها ورونقها على مرّ العصور...

كنت في ليالي الصيف كلما صعدت إلى جبل قاسيون بدت لي دمشق في السفح جوهرة ثمينة تتلألأ وسط علبتها المخملية السوداء...

جوهرة مرصّعة بشتّى الأحجار الكريمة، مختلفة الألوان، التي هي رمز لشتى المبادئ والمذاهب والاتجاهات والديانات...

وإنما بريق هذه الجوهرة كان دائماً واحداً متوحداً... يتصاعد ويتعالى... ليخطّ في الفضاء فوق كل شيء وبأحرف من نورٍ:

"الوطن سورية".




نقشٌ على أبواب دمشق

شعر: عبد المجيد عرفة

المجدُ من سرحة الفيحاء يُقتَطفُ
والحبُّ من بردى الميمونِ يُرتشفُ

والجودُ أفضلُهُ ما كان صاحبُهُ
يُغري بهِ وبفضلِ الضيفِ يعترفُ

ومَنْ سوى بردى يُغري العطاشَ به
ومن سوى جلَقٍ بالجودِ تتصفُ

هذا بسبعةِ أنهارٍ سقى كرماً
وذي بأبوابها هشَّتْ لمن دلفوا

دعت بنار القِرى من ضلَّ موردَها
وأحرقتْ بلظاها كفَّ من عسفوا

من سِفْرِها قرأ التاريخُ قصَّتَهُ
ومن رباها بُناةُ المجدِ قد هتفوا

خودٌ قد ائتزرتْ بالمجدِ زاهيةً
وبالمكارمِ والأمجادِ تلتحفُ

دمشقُ... يا بهجةَ الدنيا وفتنتَها
يا من لها ينتمي الإخلاصُ والشَّرفُ

مهدَ الحضارات إني شاعرٌ كلِفٌ
وهل يغرِّدُ إلا الشاعرُ الكلِفُ

غنيتُ مجدَكِ صدّاحاً على وترٍ
على نُغيماتِهِ الأجدادُ كم عزفوا







ورتَّلـــوا مثلمـــا رتَّلـــتُ أغنيـــةً
تحكـــي مـــآثِرَهمْ فخـــراً بمـــا نـــصفوا

جـــابوا الممالـــكَ تعزيـــزاً لـــدعوتهم
وعـــن مناهجهم في الحـــقِّ مـــا انحرفـــوا

فالعـــدلُ والعلـــمُ مـــن فيحـــائهم نبعـــا
ولم تـــزلْ منهمـــا الأجيـــالُ تغـــترفُ

للـــصينِ قـــد وصـلوا للهنـدِ قـــد رحلـــوا
للبحـــر قـــد نزلـــوا للغـــربِ قـــد زحفـــوا

قلـــوبُهمْ ســـبقتْ أســـيافَهمْ غـــدقاً
فـــالحلمُ والعـــدلُ في ترحـــالهم هـــدفُ

صـــروحُهم في بقـــاع الأرضِ شـــاهدةٌ
وكـــم وكـــم لـــصروحِ البغـــي قـــد نـــسفوا

علـــى دوارســـها شـــادوا حـــضارتهم
منـــائراً بهـــداها ســـار مـــن وجفـــوا

علـــومهم لم تـــزلْ في كـــل مدرســـةٍ
هـــدياً لمـــن جهلـــوا نهجـــاً لمـــن عرفـــوا

جُلْـــفٌ غـــلاظٌ علـــى أعـــدائهم صُـــبُرٌ
وفي أحاسيـــسهم مـــن فـــنهم رَهَـــفُ

تـــراهمُ في الـــوغى عُريـــاً فمـــا لبـــسوا
إلا الحديـــدَ وغـــيرَ النقـــعِ مـــا ألفـــوا

وفي دمـــشقَ تـــراهم في منـــازلهم
وقـــد تجلـــت بهـــا النعمـــاءُ والـــترفُ

فكـــل بيـــتٍ بـــه روضٌ يزيِّنـــه
كأنمـــا الخُلْـــدُ للأبـــصار تنكـــشفُ

تـــضوَّعتْ منـــه أطيـــابٌ منوعـــةٌ
مـــا اســـتافها فتيـــةٌ إلا بهـــا شـــغفوا







والياسمينُ ثغورٌ في تبسُّمِها
تناثرتْ درراً تغري فتُلتَقَفُ

وفي الزوايا سما النارنج يشمخ في
نجومه كعروسٍ زانها الأنفُ

وفي الفِناءِ لُجينُ الماءِ مضطرِبٌ
في بركةٍ فوقها الأفياءُ ترتجفُ

تحيطها صورٌ شتى وقد رُصفتْ
فسيفساءً وفي الجدران ترتصفُ

تآلفتْ ونبت حتى لتحسبها
طبائعَ الناسِ بالألوانِ تختلفُ

أو أنها نثرتْ في الأرضِ من قُزَحٍ
ألوانها بخيوطِ الشمسِ تأتلفُ

وفي الخدورِ ترى الإبداعَ في نُسُجٍ
يزهو بألوانها الإيوانُ والغُرَفُ

إلى دمشقَ بكل الفخر قد نُسبتْ
والشرقُ والغرب (بالدامسق) يعترفُ

وفي الأرائكِ والأبوابِ قد حُفرتْ
أحلى النقوشِ وفي أخشابها الصَّدفُ

تقول إن الذي أهدى الجمالَ لها
وزاد فتنتَها فناً لَمُحترِفُ

فكلُّ بيتٍ دمشقيٍّ تطوفُ بهِ
لمتحفٌ زيَّنتْ أرجاءه التحفُ

هذي بيوتُكِ يا فيحاءُ من قِدَمٍ
باسمِ الحضارةِ أردى حسنَها التَّلفُ

غزا محاسنَها (الباطون) معتدياً
وأفظعُ القتلِ ما بالعمدِ يُقتَرفُ







سطا على غوطتيها قاتلاً بهما
غصناً فغصناً وما في قلبه رأفُ
والشامُ من رئتيها الريحُ إنْ عبرتْ
مذعورةً. بهما من رهبةٍ تقفُ
تنقِّيان القذى منها فتحسبها
نسائماً من جنانِ الخُلْدِ تزدلفُ
فكيف يطعن أهلوها حشاشَتَها
جهراً وإنْ أسِفوا هل ينفعُ الأسفُ
إني لإسمع صوتاً عاتباً حنِقاً
من قاسيونَ ومن أهليهِ ينكسفُ
يقولُ: إني أرى في الشامِ أعمدةً
من الدخانِ تغطّيها وتكتنفُ
وكنتُ بالأمسِ ألقاها وقد سطعتْ
أصدُّ عنها الأذى حرصاً وأشترفُ
كحارس شامخ والغوطتانِ له
من كلِ ناحيةٍ من هامِهِ كتفُ
سلاحه حبُّها والعزمُ بسمتُها
والزادُ من إرثِ ما أهدى به السَّلفُ
ومن جرى حبُّ أهلِ الشامِ في دمِهِ
يعشْ فلا وهنَاً يشكو ولا يجِفُ
أحبّها الله حبّاً لا نفاد له
واختارها قَسَماً للناس إنْ حلفوا
تبارك التينُ والزيتون من قَسمٍ
وصانها الله من أطماعِ مَنْ جنفوا
قد أنجبتْ أسداً يحمي أصالتها
من الخطوب فجلَّ الأصلُ والخَلَفُ






دمشقُ :

السيف والياسمين!!

شعر: دولة العباس

قـالوا دمـشق: فقلـتُ المجدُ مـا انتـسبا

إلاَّ إليهـا ولا غنّـى ولا طربـا

قـالوا دمـشق: فقلـتُ اللهُ كلّلـها

باليـاسمين وأغنـى كرمهـا عِنبـا

وقلـت: روحٌ.. وريحـانٌ وغاليـةٌ

وأنهـرٌ تُلـهم الأشـعار والأدبـا..!!

وقلـت: شـعبٌ أبـيٌّ في توثُّبـهِ

مـا مـسّه الـضيمُ إلاّ وانـبرى لهبـا

وقاسـيونٌ لـه منهـا معادلـةٌ

شمـاءُ.. تغلـب ليـلَ الظلـم والنُوَبـا

سـلِ الزمـانَ علـى مـرّ الزمـانِ لكـمْ

راحـت دمـشقُ تـصدّ الغاصـبَ اللَّجِبـا!!

وكـمْ.. وكـمْ أركعتْ أعتـى الغُزاةِ علـى

ترابِهـا الحـرِّ حتـى أدمـتِ الرُكبـا!!

* * *

دمـشقُ يـا قِبلـة الأحـرار يـا بلـداً

يمـدُ للـضيف أسـبابَ الهـوى سُحُبا







ربيعُــــكِ اليـــوم مفــــترٌّ بزهوتــــهِ
يعـــانِق الـــشمسَ والأقمـــارَ والـــشُهبا

* * *

هـــذي روابيـــكِ بالأحبـــابِ عـــامرةٌ
كيـــف التفـــتُّ أرى حمـــصَ أرى حلبـــا!!
وألتقـــي الـــوطنَ الغـــالي وحلَّتَـــه
وأَلتقـــي المجـــدَ والتـــاريخ والعربـــا

* * *

يـــا شـــام.. يـــا شـــام يـــا أُمَّ الفنـــون سنىً
هـــاتي يـــديكِ لكـــي نـــسترجعَ الحِقَبـــا
هـــاتي لكـــي نُرجـــعَ الماضـــي وصبوتَه
يـــا ليـــت.. يـــا ليـــت عهـــدَ الحـــب مـــا غَرُبـــا
ننـــأى.. ونكـــبرُ والأيـــامُ.. دائـــرةٌ
والـــذكرياتُ حكايـــا تُـــسكِر العـــصبا

* * *

لكنّـــه الجـــرح يـــا أُمـــاه.. يُؤلمنـــا
مـــن كـــلّ صـــوْبٍ نلاقـــي الهـــمَّ والتعبـــا!!
في القـــدس في غـــزّةٍ تنـــداح غُـــصّتُنا
وفي العـــراق نـــرى الآلام والوصَـــبا

* * *

لكنّمـــا الـــبعض في حِـــلٍّ وفي شُـــغُلٍ
عـــن نُـــصرةِ الأهـــلِ لم نلـــقَ الـــذي وَجَبـــا!!







فالقتـــل والـــذبحُ والتـــدميرُ مـــسألةٌ

في شِرعةِ (البعض) لا تستوجب الغضبا!!

* * *

يـــا آل يَعْـــرُبَ.. يـــا آل الكفـــاح أمـــا

آن الأوانُ لكـــي نـــسترجعَ النـــسبا؟!

أعـــداء يعـــرب و(البـــاقون) قـــد ذبحـــوا

إبنـــاً لكـــمْ إبنـــةً أُمّـــاً لكـــمْ وأبـــا!!

وأنـــتمُ نـــيّمٌ ماضـــون مـــن حُلُـــمٍ زاهٍ

إلى حُلُـــمٍ يـــستعطف الـــذَهَبا!!

* * *

هبّـــوا بحـــقّ اليتـــامى أنقـــذوا وطنـــاً

مجرّحـــاً صـــفعتْه الـــريحُ.. فاضـــطربا

* * *

أمـــا دمـــشقُ فمـــا إلاّ دمـــشقُ لنـــا

ترفـــو الجـــراحَ وتُزكـــي الكـــبرَ والحَـــسبا

للحـــب باقيـــةٌ.. للمجـــد ســـاريةٌ

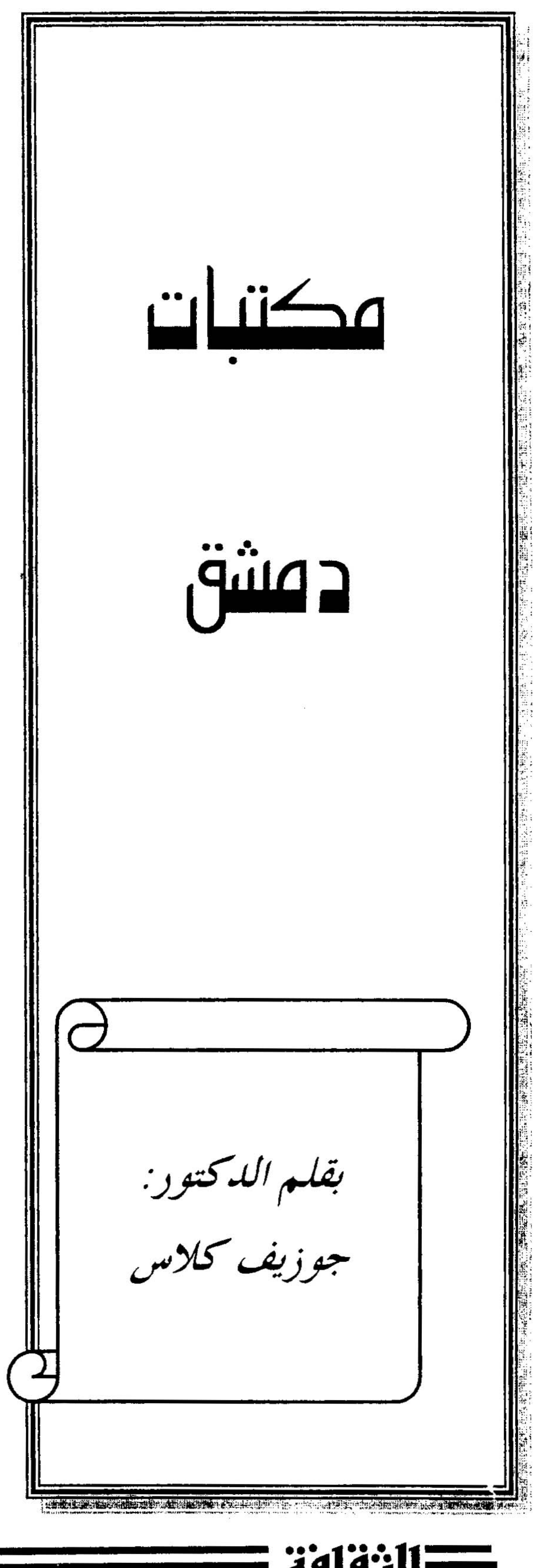
مـــا غيرُهـــا يُرجـــعُ التـــاريخ والعربـــا

* * *

يـــا شـــام.. يـــا شـــام أنـــتِ اليـــوم عاصـــمةٌ

للـــشعر والنثـــر فلتستنهِـــضي الأَدبـــا



انتشرت المكتبات في دمشق في وقت مبكر، وبخاصة في المساجد والمدارس، واشتملت على عشرات المخطوطات الثمينة والمؤلفات القيّمة، وقد اندثر القسم الأكبر من هذه المكتبات على مر الأيام، ولم يبق منها غير عدد يسير نذكر منه:

مكتبة الجامع الأموي

وقد حظيت بعدد كبير من نفائس الكتب، حفظت في مبنى (خزنة الجامع الأموي)، لكن الحريق الذي شبّ فيه عام ١٨٩٣، التهم أعدادا كبيرة من المؤلفات، ولم يسلم منها إلا ما كان محفوظا في مبنى الخزنة بصحن الجامع، كان الكثيرون يعتقدون بأن الخزنة تضم صكوكا وأوراقا رسمية، ولم يكن يُسمح بفتح بابها إلا للخاصة، ويذكر (جرجي زيدان) أن الرحالة الإنكليزي (روجرز) نال إذنا بالاطلاع على محتويات الخزنة في منتصف القرن التاسع عشر... ثم كان آخر من أتيح له الاطلاع عليها البارون (فون سنودن) أستاذ اللاهوت بكلية برلي، وكان مهتماً بالبحث عن نسخة قديمة من الأناجيل اليونانية... واغتنم فرصة مروره بدمشق أواخر القرن التاسع عشر، والتمس السماح له بالاطلاع على الوثائق المحفوظة بمكتبة الجامع الأموي، لكنه لم يوفق في طلبه إلا في أواخر القرن، حين حصل على إذن الدولة بفتح باب الخزانة بحضور والي دمشق (ناظم باشا) وفريق من الوجهاء، فأوفد البارون (سنودن) معاونا له قام بتلك المهمة، ووقع على رقوق كثيرة معظمها ذو مضمون ديني، وبينها أجزاء من التوراة باللغة السريانية، ورقوق فيها كتابات يونانية ولاتينية وعبرانية وآرامية وسامرية، وكان أقدمها مكتوبا في القرن الخامس الميلادي، كما وجدت رقوق مكتوبة بحروف كوفية، وقدرت محتويات خزنة الجامع الأموي وقتذاك بعدّة آلاف كتاب.

وقد كان ذلك من أهم الدوافع التي حدت برجال الفكر بدمشق للاهتمام بما تبقى من مكتبات المدينة، والعمل بنشاط لجمعها في مكتبة واحدة، تحميها من التلف وتجعلها في متناول الدارسين وطلاب العلم، وقد تحققت الفكرة أخيراً في عهد والي دمشق (مدحت باشا) عام ١٨٧٨، ثم جمع ما تبقى من مخطوطات وكتب المكتبات القديمة الموزعة في مساجد ومدارس دمشق، في المكتبة الظاهرية.

المكتبة الظاهرية بدمشق

تقع المكتبة الظاهرية في حي العمارة بين بابي الفرج والفراديس، في موقع متوسط بين الجامع الأموي وقلعة دمشق وسوق الحميدية وبيوت المدينة، فضلاً عن الحمّام الملاصق له من جهتها الشمالية، والذي يعرف بحمام السلطان الظاهر، ولعل هذا الموقع ساهم على حد كبير في تحديد أهميتها، حيث تتفرع منها وإليها كافة الأزقة المؤدية إلى كافة نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، ومما يؤكد هذه المكانة أيضاً هو فخامة البناء واحتوائه على الكثير من عناصر الفن العربي المعماري، المستوحاة من ذات المكانة التي يحتلها المسجد الجامع باعتباره الدليل الموضوعي على قوة العصر ونفوذه.

البدايات

إن المباني التي شيدها الأيوبيون والمماليك يتراوح حجمها وفخامتها تبعاً لطبيعة حكم السلطان من حيث استقراره في الحكم، لذلك قامت الظاهرية على دار من أعظم دور دمشق وأكثرها شهرة، وهي تدعى بدار العقيقي لصاحبها أحمد بن الحسن العقيقي المتوفى سنة ٣٧٨هـ وعندما حلت الأسرة الأيوبية في دمشق سكن هذه الدار كبير الأسرة نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين وأخيه الملك العادل.

وحين دخل صلاح الدين الأيوبي دمشق فاتحاً سنة ٥٧٩هـ بعد وفاة السلطان نور الدين الزنكي نزل بدار والده، وعند أفول الدولة الأيوبية انتقلت هذه الدار إلى الأمير فارس الدين أقطاي، ومن ورثته اشترى الملك السعيد هذه الدار، وبنى فيها القبة لكي يدفن والده الملك الظاهر، وأمر بجعلها مدرسة يؤمها طلاب العلم من كافة الأرجاء، ثم عزل الملك السعيد كما عزل أخوه بعده، وأصبح الحاكم في دولة المماليك السلطان قلاوون، الذي أمر باستمرار البناء في المدرسة، وقد أنجز سنة ٦٨٠هـ، وفي ربيع الأول من ذلك العام وصلت أرملة الظاهر بيبرس ومعها جثمان ابنها السعيد فدفنه إلى جانب أبيه، لذلك فإن أغلب المباني التي شيدها الأيوبيون والمماليك وأمراؤهم تضم مقابرهم، كما هو الحال في المدرسة العادلية الكبرى التي تضم ضريح الملك العادل، والمدرسة العزيزية التي تضم ضريح صلاح الدين الأيوبي، فكأنما الداخل إلى هذه المدارس إنما يجد الموت، ثم بدخوله إلى الباحة الفسيحة تبدو له الحياة رحبة مشبعة بالضوء والخضرة والحياة، وكأنه الفرج بعد الضيق أو الحياة بعد الموت.

من عالم المادة إلى عالم الروح

حينما تهم بالدخول إلى الظاهرية تتوقف متأملاً المشهد، وتضطر للنظر في اتجاهين متعاكسين الأول هو المكتبة الظاهرية، والثاني هو المدرسة العادلية الكبرى، تبتعد بضع خطوات في اتجاه مواز للبناءين، فيذهلك أكثر هذا الانسجام بين الصرحين المتقابلين، وكأنما أراد المصمم أن يؤلف منهما وحدة عمرانية يكمل فيها جمال الأولى وروعة الثانية، فهما رابضتان وجهاً لوجه كعملاقين جبارين تتحديان

الزمن والفناء بروعة وجلال، إلا أن واجهة الظاهرية هي الأجمل من نظيرتها العادلية بل تعتبر أجمل ما بنى المماليك.

تنظر للأعلى عند أول عتبة فتطالعك في الجهة اليمنى عبارة: (المدرسة الظاهرية - مدرسة السلطان بيبرس وتربته. بنيتا سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٠م). وقد بني المدخل الرئيسي بحجارة بيضاء وأخرى وردية اللون، وتعلو الباب ثلاثة صفوف عريضة من الكتابة النسخية المزهرة، ورَد في الصفين الأوليين ذكر وقفها وفي الصفين التاليين أسماء بناتها، وفي الزاوية الشمالية اسم مهندسها (إبراهيم بن غانم).

وتجتاز المدخل الرئيسي إلى رواق ذي أقواس محمولة على عمودين حجريين كبيرين، وهذا الرواق مستوحى من بناء المسجد الذي يسبق دخوله محطة تمهيدية ينقل فيها المرء من عالم المادة إلى عالم الروح، إنك من مدخل المكتبة لا تستطيع أن تتخيل كيف ستكون من الداخل، ولكن بعد اجتياز الرواق تنفتح أمامك الباحة الخارجية فسيحة مربعة، يؤطرها جدران تنسحب إلى الأعلى عارية من أية زخارف أو لمسات فنية، لقد عني العرب قديماً بهذه الباحة في منازلهم ومساجدهم وخاناتهم، وزودوها بالأشجار والنوافير والرخام، وكل ما من شأنه أن يجد تعويضاً عن ضيق الأزقة وتعرجها وانغلاق المنازل المتلاصقة عليها، فضلاً عما توحيه الباحة بحد ذاتها من برودة منعشة، وإحساس بالابتعاد عن ضجة الطريق وصخبه، ولذلك فقد انفتحت هذه الأماكن على الداخل بشكل واع وبما يحقق الاتصال والانسجام في تنظيم كافة العلاقات المرتبطة بها، وبشكل يخدم الوظيفة الترفيهية والاجتماعية التي وجدت من أجلها، والوقوف في باحة الظاهرية لا يتيح لك أن تحدد معالم المكان بدقة، فالغموض يظل مسيطراً على ما يمكن أن تحتويه الأبواب التي تتوزعها الجدران في داخلها، بعض هذه الأبواب ينفتح على الباحة مباشرة وبعضها ينغلق على أدراج متعرجة تصعد إلى الأعلى لتنبئ عن وجود غرف وقاعات أخرى حديثة البناء.

هناك تشويهات كبيرة في شكل البناء المطل على الباحة، يتمثل بإغلاق القاعة الجنوبية الملاصقة لقاعة الضريح - بشكل هجين وبدون أن يعبر عن أي ذوق فني - وطلائها باللون الأبيض، وهذه الإضافات تعود للعهد العثماني الذي تميز بإهمال كل ما يعبر عن حضارة وثقافة الشعوب التي حكموها، وفي عهدهم تحول هذا البناء إلى مدرسة ابتدائية، فاقتضى هذا التحول ارتجال هذه الإضافات التي أبقي عليها.

المدرسة الظاهرية

إن ما تبقى من الظاهرية كصرح حضاري يحمل مميزات وروح عصره تمثّله فقط قبة الضريح، التي تقع على يمين الداخل فهي ماتزال محافظة على روعتها وأصالتها دون أن تتجرأ يد الإنسان الحديث على العبث بكافة مضامينها الروحية والعمرانية، وهي قبة حجرية شاهقة العلو يصل ارتفاعها إلى حوالي ثلاثين متراً، وتنتصب جدرانها المكسوة بزخارف من المرمر والحجر المنحوت في شموخ رهيب، كأن السلطان الظاهر يغالب الفناء ويحدّد لنفسه موقعاً في عصور تلت عصره.

من هذه القبة تهب عليك نسائم القرون الوسطى الغابرة، فيزداد إحساسك بالعزلة والخشوع، أشعة الشمس المتسربة من نوافذ القبة المرتفعة تتبعثر كلها فوق الضريح لتضفي على المكان سكوناً وهدوءاً، يتمثل بالوحدة اللونية التي لا تتبدل بتغير حركة الشمس واتجاهها نحو الغروب.

تحت هذه القبة بدأت المدرسة الظاهرية، فتحت أبوابها لأول مرة يوم الأربعاء ١٣ صفر سنة ٦٧٧هـ، وكانت مركزاً مهماً لتدريس الفقه على المذهبين الحنفي والشافعي، وألقى فيها الشيخ (رشيد الفاروقي) مدرس الشافعية الدرس الأول في الإيوان الشرقي، أما الشيخ (صدر الدين سليمان بن أبي العز) فقد ألقى الدرس الأول فيها في الإيوان القبلي، وبقيت سنوات على هذه الحال، ثم بدأت المدرسة في نهاية القرن الثالث عشر مرحلة جديدة في تاريخها مع تحويل العثمانيين لها إلى مدرسة ابتدائية حملت اسم، مدرسة الملك الظاهر ١٢٩٤هـ.

من مدرسة إلى مكتبة

استصدر والي دمشق مدحت باشا قراراً بجمع الكتب في مكتبة عامة مقرها تربة الملك الظاهر، وعين لها محافظين، وشهدت المكتبة نهضتها المتميزة حين تصدى الشيخ طاهر الجزائري مفتش المعارف حينذاك وحامل شعلة التنوير والنهضة الفكرية، مع زميله الشيخ سليم الحجازي للعمل الجاد في جمع المخطوطات الثمينة والمطبوعات القيّمة، حرصاً منه على حماية عيون التراث الفكري الذي كان متفرقاً بين المكتبات الخاصة والمساجد والبيوت القديمة، وبات معرضاً للعبث والضياع، فاتصل بالسلطان العثماني الذي أصدر قراراً بجمع المخطوطات والكتب عام ١٢٩٥هـ، وقد جمعت المئات منها وكان من أهم مصادرها المكتبات الوقفية بدمشق وهي:

١- المكتبة العمرية في صالحية دمشق، ونقل منها ٦٦٣ مخطوطة، مصححة على أيدي علماء أجلاء.

٢- مكتبة عبد الله باشا العظم، ومقرها مدرسة عبد الله باشا ابن الوزير محمد باشا محافظ الشام، ونقل منها ٤٥٨ مخطوطة.

٣- مكتبة سليمان باشا العظم، وكانت محفوظة في المدرسة السليمانية قرب باب البريد، ونقل منها ١٢٧ مخطوطة.

٤- مكتبة الملا عثمان الكردي، وكانت في المكتبة السليمانية، ونقل منها ٣١٣ مخطوطة.

٥- المكتبة المرادية التي أنشأها الشيخ مراد النقشبندي، ونقل منها ٢٤٦ مخطوطة.

٦- المكتبة السميساطية، وكانت محفوظة في الخانقاه السميساطية عند باب العمارة، ونقل منها ٨٧ مخطوطة.

٧- مكتبة السياغوشية، وكانت في مسجد في باب الجابية بني بأمر الوزير الأعظم سياغوش باشا، ونقل منها ١١ مخطوطة.

٨- مكتبة الخياطين، وكان قد أوقفها أسعد باشا العظم وجمعها في مدرسة والده إسماعيل باشا بسوق الخياطين، ونقل منها ٣٧٦ مخطوطة.

٩- مكتبة الأوقاف، جمعت من خزائن عديدة وحفظت في ديوان الأوقاف، ونقل منها ٦٧ مخطوطة.

١٠- مكتبة بيت الخطابة، في الجامع الأموي، أوقفها صاحبها علي الدفتري، ونقل منها ٧٣ مخطوطة.

وبعد إشراف المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية حالياً) عليها عمل على جمع نوادر المخطوطات، وتزويد المكتبة بكميات وفيرة من الكتب والمجلات وبلغت المحصلة الأولى: ٢٤٥٣ كتاباً ومخطوطة في سائر ألوان المعرفة، وتم افتتاح قاعة المطالعة سنة ١٢٩٨هـ، وبدأت أعداد الكتب تتزايد مع الأيام لتصل عام ١٩٨٠ على ١٨ ألف مخطوطة نقلت إلى مكتبة الأسد الوطنية و ٦٥ ألف كتاب و ٤٥ ألف مجلة معظمها قديم.

الظاهرية، نوادر المخطوطات وفرائد التراث

شهدت المكتبة الظاهرية ازدهاراً وتطوراً كبيرين تمثّلا في تزايد أعداد المخطوطات النادرة، والمراجع القيمة والكتب المتنوعة والدوريات العربية، ومما هو جدير بالذكر أن المكتبة تحتضن في خزائنها مجموعات من المؤلفات الفائقة الأهمية مثل: (كتاب القانون في الطب) لابن سينا، طبعة عام ١٥٩٣م، و (الكليات) لأبي البقاء الكفوي، طبعة عام ١٢٨٠م، و (تاريخ الدول الإسلامية في المغرب) لابن خلدون، طبعة عام ١٢٩٧م، و (لسان العرب) لابن منظور، طبعة عام ١٣٠٠م، و (الأسماء والمصنفات) طبعة عام ١٣١٣م، وحرصاً على تلك المؤلفات من التلف من جانب، وتوفر شروط الحماية ووجود قسم متخصص بالترميم في مكتبة الأسد الوطنية الحديثة، فقد تم نقل المخطوطات إليها بالإضافة إلى حوالي خمسة آلاف كتاب قيّم.

في شهر حزيران من عام ١٩١٩م، ألحقت المكتبة الظاهرية بالمجمع العلمي العربي، وسميت (دار الكتب العربية)، وكان المفكر الراحل محمد كرد علي أول رئيس للمجمع والمكتبة، لكنها عادت واستقلت بالبناء بعد نقل المجمع إلى بناء جديد خصص له في عام ١٩٨٠م، واليوم تشتمل المكتبة على قاعة خليل مردم وهي مخصصة للباحثين الذين يعدّون رسائلهم الجامعية، وبالذات في تخصص اللغة العربية وآدابها، ودواوين الشعر العربي، وتراجم الأعلام، إضافة إلى كتب التفاسير والعلوم الشرعية والمعاجم، وقاعة كبيرة للمطالعة تحمل اسم العلامة مصطفى الشهابي، وقاعة الشيخ طاهر الجزائري وتستخدم نظام الرفوف المفتوحة إضافة إلى ثلاث مستودعات أولها للمخطوطات والثاني للمطبوعات والثالث للدوريات، وكلها مدرجة في فهارس.

لقد مرّ على قيام المكتبة الظاهرية نيف وسبعة قرون، وما يزال هذا الصرح الحضاري يؤدي مهمته الثقافية على وجهها الأكمل، ويلقى العناية من حيث التجديد والإصلاح، إضافة لتزويده بالجديد مما يصدر من المؤلفات والمراجع، وتبقى قناديله مضيئة في ركن عريق من دمشق القديمة، يذكر الأجيال بماضي الأمة المجيد، وتراثها الخالد على مر السنين.

مكتبة الأسد

تعتبر مكتبة الأسد المكتبة الوطنية للقطر العربي السوري وقد تم تدشينها رسمياً برعاية الرئيس الراحل حافظ الأسد يوم ١٩٨٤/١١/١٦ وهي من منجزات الحركة التصحيحية، حيث أصدر مرسوماً تشريعياً يقضي بإنشاء مكتبة وطنية في سورية، وتم وضع حجر الأساس في عام ١٩٧٨، وتقع المكتبة في الطرف الغربي من مدينة دمشق وتطل على ساحة الأمويين، فموقعها استراتيجي ممتاز وملائم في وسط العاصمة حيث يمكن الوصول إليها بسهولة.

وتبلغ المساحة الإجمالية للمبنى ٢٢ ألف متر مربع، وتحيط بها حدائق بمساحة ٦ آلاف متر مربع، وتتألف من تسعة طوابق. وكونها المكتبة الوطنية للقطر العربي السوري فمن أولى مهامها جمع كافة أشكال التراث الثقافي من كتب ودوريات وغيرها من أوعية المعلومات وتنظيم هذه المواد وتيسير الانتفاع بها للباحثين والدارسين.

وتولي المكتبة اهتماماً بالتراث الثقافي العربي المعاصر لجمع مختارات منه في كافة المواضيع وللحفاظ على التراث العربي القديم (المخطوطات) تسعى المكتبة إلى جمع ما تيسر من هذه المخطوطات في القطر العربي السوري وصيانتها بالتعقيم والترميم وحفظها في مستودعات ملائمة.

وتقيم المكتبة في كل عام معرضاً للكتاب العربي وقد أقيم لأول مرة عام ١٩٨٥ ولا يزال حتى الآن.




يا رب..

شعر: نظير جابر

كحّلتُ جفني وقلبي مِنكَ يا بردى
فهل ألاقي على مرِّ السِّنينِ صدى؟

عرفتُ فيكَ شبابي زاهراً نضِرا
وصغتُ من نفحاتي بلبلاً غَرِدا

مهما تمرّغتُ بالآلام مرتعشاً
صبري على الضَّيمِ ما ولّى ولا نَفَدا

نسجتُ من خافقي جسراً أشُدُّ به
أزْرَ المحبِّين مّمن ثار واتَّقدا

ألفُّهُ بسياجِ الياسمينِ ولمْ
ألمحْ على مقلتيهِ الوجدَ والكمدا

يا نعمةَ الروح زيدي رقّةً وشذى
فالعمرُ فانٍ ويمسي الشِّعرُ مُتَّئِدا!







أطـــوف في حـــضرة الأحـــلام مُرْتَقِبـاً
وأعتلـــي صـــهوةَ الأنـــسامِ مرتعـــدا
ضـاعتْ مـع الفِكْـرِ والأوجـاع باصـرتي
ولـــستُ أعـــرف غـــيرَ اللهِ لـــي ســندا
أقـضي مـع الليـل أتراحـي وأرشـفها
وأســتطيبُ لديـــه الهـــمَّ والـــسَّهَدا
نفـسي وخمـرة أحزانـي ومـا ملكـا
تناوبــا في الهــوى القدســيِّ واتّحــدا
همـــا أليفـــانِ يـــدري اللهُ ســـرَّهما
تعاهـــدا في الوفـــاء الحـــرِّ واعتقـــدا
الحمـــد لله في الـــدارينِ مـــا بقيـــا
والمـــرء يـــضمرُ إجـــلالاً لمـــن حمـــدا
(كـلّ ابــن آدمَ خطّــاءٌ) ألــستَ تــرى
في النّـاس مـن يحـضنُ الـضَّرّاءَ والرَّغَـدا؟
هـــذي بـــضاعتنا رُدَّتْ وأَعْجَبُهـــا
مـا كـان قـد راجَ في الحـالين أو كـسَدا
مهمـا تبعثـرَ شـأنُ الخلـقِ واختلفـوا
هـم يطلبـون كـريمَ العفـو والمـددا
كـم مـن شـعوبٍ مـضَوْا وانـزاح ذكـرهمُ
وعـــانقوا الأرض في طيّاتهـــا بـــددا







لا يــــشمخَنَّ بـــأنفِ العـــزِّ ذو تـــرفٍ
مـــا شـــاد في دارهِ الأســـوارَ والعُمُـــدا
فَلْنبـــذُرِ الخـــيرَ إيمانـــاً وتـــضحيةً
وليعـــرفِ المـــرءُ مـــا وفّـــى ومـــا حَـــصَدا
أســـتغفرُ اللهَ جـــلّ الله قدرتـــهُ
كـــلٌّ يحاسَـــبُ فيمـــا قـــال أو عبـــدا
لا تُـــسألونَ جماعـــاتٍ منـــسّقةً
بـــل يُـــسْألُ الـــشّخصُ عمّـــا نـــال منفـــردا
فـــاحفظ لـــسانَكَ عـــن تـــدنيسِ سـابلةٍ
هـــل يـــدري كـــلُّ امـــرئٍ مـــا قـــصَّ أو سـردا؟
والمـــوردُ العـــذْبُ فينـــا سلـــسَلٌ خـــضلٌ
فَلْـــيعلَمِ الـــصّادقُ الميمـــون مـــا وردا
لنـــا روافـــدنا يـــسرٌ ومكرمَـــةٌ
ويعـــرفُ المـــؤمنُ المختـــارُ مـــن رَفَـــدا
مـــا ينفـــعُ النـــاسَ يبقـــى راســـخاً أبـــداً
ولْنُبْعِـــدِ الغـــثَّ والتـــدجيلَ والزَّبَـــدا
إذا أتـــى أمرنـــا في ظـــلٍّ حالكـــةٍ
فـــلا تـــرى والـــداً يغـــني ولا ولـــدا
يـــا ربِّ! ضـــمّدْ جراحـــي واسـقني أمـــلاً
فهـــل أرى فيـــك إلاّ الواحـــدَ الأحـــدا؟





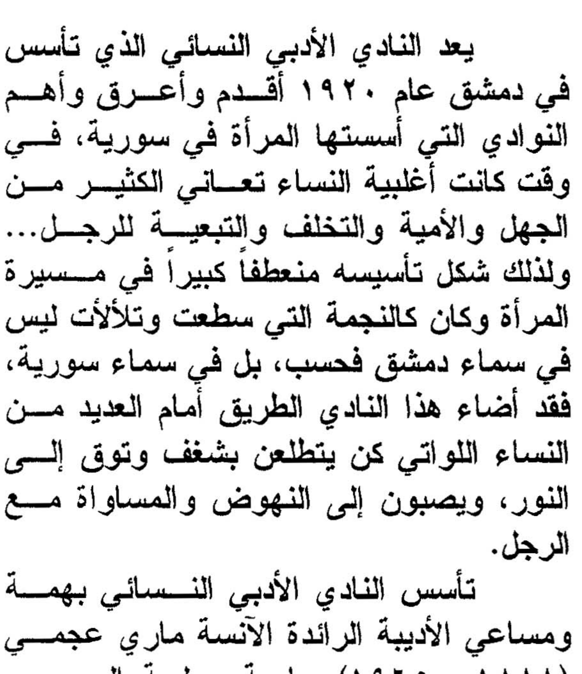


يـــا ربّ! طهّـــر بأنفـــاسِ الجنـــان فمـــي
واسـكبْ رحيقـاً يفـوق الحـصرَ والعـددا
يـــا ربّ! عفـــوك إنـــي مـــذنبٌ وغـــداً
ألقـى علـى مـضجعي الخلاّقـةَ الـصَّمدا
يـــا ربّ! كفّـــارتي أنـــي علـــى كَبِـــدي
لا أعــرف المــنّ والتّلــوينَ والحــسدا
يـــا ربِّ! ضـــمِّخْ بريحـــانِ الخلـــودِ يـــدي
وامــسح جــراحَ رفــاتي معــصماً ويــدا
يـــا ربّ! أيّـــد بنـــصرٍ منـــك عـــاقبتي
لا بـــارك الله فـــيمن عـــاث أو فـــسدا
يـــا ربّ! سـيِّجْ بـــوحي منـــك نـــافلتي
وحُـلَّ أسـري وفكِّـكْ هـذه العُقَـدا
يـــا ربِّ! غـــذّيت فيَّ الحـــبَّ منتعـــشاً
يـــا ربِّ! نمّيـــتَ فيَّ الزُّهْـــدَ والجَلَـــدا
شـــآمُ! رفّـــي فتونـــاً وارقـــصي طربـــاً
قـــد كـــرّم اللهُ فيـــكِ الأهـــلَ والبلـــدا
مُطَهّـــرونَ نقيّـــاتٌ قلـــوبهمُ
هنـــا الميـــامينُ ممـــن مـــاتَ أو وُلِـــدا
وعـــدٌ مـــن اللهِ حيّانـــا فأنعـــشنا
والله أولى بمـــا زكّـــى ومـــا وعـــدا




النادي الأدبي النسائي في دمشق

بقلم: عيسى فتوح



يعد النادي الأدبي النسائي الذي تأسس في دمشق عام ١٩٢٠ أقدم وأعرق وأهم النوادي التي أسستها المرأة في سورية، في وقت كانت أغلبية النساء تعاني الكثير من الجهل والأمية والتخلف والتبعية للرجل... ولذلك شكل تأسيسه منعطفاً كبيراً في مسيرة المرأة وكان كالنجمة التي سطعت وتلألأت ليس في سماء دمشق فحسب، بل في سماء سورية، فقد أضاء هذا النادي الطريق أمام العديد من النساء اللواتي كن يتطلعن بشغف وتوق إلى النور، ويصبون إلى النهوض والمساواة مع الرجل.

تأسس النادي الأدبي النسائي بهمة ومساعي الأديبة الرائدة الآنسة ماري عجمي (١٨٨٨ – ١٩٦٥) صاحبة مجلة العروس التي صدرت عام ١٩١٠، وكانت الغاية من تأسيسه بعث نهضة اجتماعية وثقافية عند المرأة، لجعلها مواطنة صالحة لخدمة المجتمع، وذلك بإلقاء المحاضرات، وإقامة الحفلات الأدبية والفنية، وإيجاد مكتبة خاصة بالسيدات، وتعليم الطالبات المحتاجات، وتقديم اللباس لهن على حساب النادي، وتشجيع المصنوعات الوطنية، والحث على شرائها وتحسين صنعها، وتوثيق عرى الصلة والصداقة بين السيدات الدمشقيات، دون التدخل في الشؤون السياسية والدينية...

كانت السيدة أسماء عيد زوجة السياسي، والعلامة فارس الخوري – وزير المالية آنذاك – أول رئيسة للنادي، ثم تلتها السيدة مسّوك قرينة الدكتور إبراهيم مشاقة، وكانت نائبتها السيدة روز عطاالله شحفة، أما الهيئة الإدارية فقد تألفت من السيدات والآنسات: ثريا شحلاوي لإدارة الأشغال اليدوية، وأليس قندلفت لكتابة المراسلات والوقائع، وإيمي كحيل لأمانة الصندوق، ونظيرة عجمي لأمانة المكتبة، وآسين عجمي،

وروز قدسي، ونجلا خليل، وأسما تين عضوات....

ثم تعاقب على رئاسة النادي كل من السيدات: سارة مشاقة نعمة، وأوجيني شاهين مالك، والآنسة عفيفة مسّوح، وسعاد سلوم نصير، وكوثر سلوم مسوح، وأخيراً الشاعرة وداد طويل عبد النور التي ترأسه حالياً، وتدأب على عقد جلسات النادي شهرياً ودون انقطاع، وهي حريصة كل الحرص على أن يتابع النادي مسيرته وأنشطته السابقة، وذلك بإلقاء المحاضرات الأدبية والفكرية والثقافية، وتقديم المعونات للمحتاجات، رغم قلة موارده، فهو حتى الآن لا يملك مقراً لعقد الاجتماعات، ولا صالة للمحاضرات، ولذلك يستخدم قاعة كنيسة الصليب المقدس لإقامة أنشطته، والجدير بالذكر أن النادي كان يتخذ سابقاً صالة مقهى (قصر البللور)، أو صالة (النادي العائلي) في القصاع مكاناً لإقامة محاضراته واحتفالاته وأنشطته الأدبية والفنية والاجتماعية.

أقام النادي في بداية تأسيسه عدداً من المحاضرات الأدبية والأمسيات الشعرية. وكانت ماري عجمي هي التي تلقي أكثر هذه المحاضرات، وتشرف على تنظيمها، وتكلف المحاضرين بها، وتقدمهم للحضور، وتنشر أخبار هذه المحاضرات ونصوصها في مجلتها (العروس) التي كانت آنذاك النافذة التي يطل منها النادي على المجتمع، وقد اعتمدت على هذه المجلة للاطلاع على كل ما يتعلق بأسماء رئيساته وعضواته السابقات وأنشطته...

تقول ماري عجمي في الخطبة التي ألقتها في حفلة افتتاح النادي عام ١٩٢٠ وكانت بعنوان (المرأة والمساواة):

"إن حاجتنا لناد نسائي شديدة، فكم هدت للمجتمعات الأدبيةً من ضالين وكم أنقذت من رؤساء، وكم أصلحت من سجون!".

"لقد ثبت للعلماء أن إصلاح البلاد لا يتم ما لم يوجد التوازن بين الجنسين في العلم والمعرفة، ليتعاونا معاً على الوصول إلى مركزها العملي".

"إن صرخة النساء في طلب المساواة طبيعية لا مناص منها، وبرهاني على هذا يقتضي الرجوع إلى التاريخ، فإذا قلبتم صفحاته ترون الأمومة أقدم عهداً من الأبوة".

ولها خطبة أخرى بعنوان (المطالعة) ألقتها في النادي بعد مرور سنة ونيف على تأسيسه، وإنشاء غرفة قراءة عامة فيه خاصة بالنساء، شكرت فيها النادي العائلي الذي أتاح لعضوات النادي الأدبي النسائي عقد جلساتهن نصف الشهرية فيه، إلى أن يتم الحصول على المال الكافي لاستئجار مكان خاص لوضع المكتبة فيه، وفتح أبوابها للعموم، وقد تطرقت في هذه الخطبة إلى بيان فوائد المطالعة وتأثيرها في النفوس.

ومن الخطب التي ألقتها في النادي خطبة بعنوان (قيمة الإنسان) قالت فيها:

"قيمة الإنسان إذا كان موظفاً فبأمانته أو قاضياً فبعدله، أو محامياً فبصدقه، أو تاجراً فبقناعته أو عاملاً فبإتقانه... قيمة الرجل الكبير العريض الجاه والرجل الوضيع واحدة متى قاما بواجبهما بأمانة ونشاط...".

* * *

لقد استقبلت ماري في النادي عدداً من الأدباء والشعراء كعز الدين التنوخي، وأبيفانيوس زائد (المطران فيما بعد)، وخليل مردم بك رئيس الرابطة الأدبية، وعارف النكدي، والخطاط نجيب هواويني الذي ألقى فيه قصيدة أشاد فيها بفضل سيدات النادي والأعمال الجليلة التي يمارسنها، وفي مقدمتها الحث على لبس المنسوجات الوطنية جاء فيها:

وذا نـــاد بـــه الآدابُ تُجلـــى
تقــوم بــه النـــساءُ الفاضـــلات
فأنهِــضن المــداركَ مـــن حــضيضٍ
لترفِعهـــا العلـــومُ الناصـــعاتُ
وعلّمـــن البنـــات بـــأن أبهـــى
وأجمـــلَ مـــا بِهـــنَّ هـــي الـــصفات
وأن بـــساطةَ الأثـــواب تعلـــو
إذا قامـــت تبـــارى اللاَمعـــات
وأثـــواب نـــسجناها بكـــفٍ
علـــى الثِّـــوب الغريـــب مفـــضلات
وخـــيطٌ تنـــسج الأثـــوابُ فيـــهِ
حـــسامٌ تتقيـــه الطارئـــات

لكن حفلة استقبال الأديبة الشهيرة مي زيادة (١٨٨٦ – ١٩٤١) كانت أعظم وأهم حدث جرى في تاريخ النادي في عشرينات القرن العشرين، فقد زارت ميّ دمشق في الرابع من شهر تشرين الأول عام ١٩٢٢، فأقام لها النادي يوم الثلاثاء في العاشر منه احتفالا كبيراً على مسرح (قصر البللور) بدلاً من مقر النادي الأدبي، لضيق مساحته، وكانت ماري عجمي قد تعهدت أن تقيمه في فسحة منزلها الدمشقي الواسع في حي (باب توما) باعتبارها رئيسة النادي يومئذ، لكنها عدلت عن ذلك بسبب اضطرارها إلى السفر، وكلفت نائبتها الأديبة روز عطاالله شحفة أن تستقبلها نيابة عنها، فاستقبلتها بكلمة ترحيبية باسم النوادي الأربعة وهي: النادي الأدبي النسائي، والنادي الأدبي الأرثوذكسي، والنادي الكاثوليكي، والنادي الماروني، وقالت في كلمتها:

"إن الفيحاء ترتدي أبهى حللها، وتظهر بأبدع محاسنها، وإن (بردى) ينشد أطرب أغانيه ترحيباً، فأهلا برافعة لواء الأدب، ومرحباً بالقلم الذي يُغمس بمداد القلب والعاطفة".

ولما عادت ماري من سفرها بادرت إلى التسليم عليها في مقر إقامتها بفندق (فيكتوريا) بصحبة الآنسة أليس قندلفت أمينة سر النادي، وأمضت عندها ساعتين، ثم ودعتها وفي النفس نزوع إلى البقاء مدة أطول، وطلبت منها أن ترد لها الزيارة لتعرّفها على بعض سيدات دمشق ممن لم يتح لهن حضور حفلة استقبالها، إلا أنها اضطرت للسفر قبل الوفاء بوعدها برد الزيارة.

تحدث في الحفلة التكريمية التي أُقيمت لميّ أيضاً كل من الدكتور مرشد خاطر عن النادي الماروني، والسيد أنطون أشقر عن النادي الكاثوليكي، والدكتور توفيق قندلفت عن النادي الأدبي الأرثوذكسي، والشاعر خليل مردم بك رئيس الرابطة الأدبية الذي ألقى قصيدة رقيقة بعنوان (تحية ميّ) قال فيها:

تحيـــةً طيبـــةً
إلـــى النبـــوغِ العربـــيِ
ونظـــرةً خاشـــعةً
إلـــى بهـــاءِ الأدبِ
قـــد جمعـــت بينهمـــا
"مـــي" بـــأمي وأبـــي
يـــا نجمـــةً لامعـــةً
فـــي شـــرقِها والمغـــربِ
تنازلـــت لـــك الرجـــا
لُ عـــن رفيـــع المنـــصبِ
ولاةُ أمـــر الأدبِ
ولـــوك ملـــك الأدبِ
وقلـــدوكِ أمـــرَهُمْ
وذاكَ أعلـــى الرتـــبِ

ثم تحدث بعده المحامي فائز الخوري (شقيق العلامة فارس الخوري) فقال:

"إن الشرع الإسلامي منح المرأة من الحقوق ما لم يمنح لغيرها من نساء الغرب، والشاعر حليم دموس الذي لقبته ميّ بشاعر الشباب فقال:

ذكـر الخـاطر يومـاً عهـدَ مـيّ
فـسرت آيتـهُ الكبـرى إلـيّ
واسـتمد الـوحيَ مـن عليائهـا
فـإذا الـشعرُ بـه طـوعُ يَـديّ

وختم الشاعر شفيق المعلوف كلمات الترحيب بقصيدة رائعة قال في مطلعها:

بنـتَ الجبـالِ ربيبـةَ الهـرمِ
هيهـاتَ يجهـلُ اسـمَها حـيٌّ
لـم تلـق سـحراً سـال مـن قلـم
إلاّ هتفنـا هـذه (مـي)

وبعد مضي ساعتين تقريباً وقفت ميّ فألقت خطاباً قيماً استعادت فيه ذكرى طفولتها في دمشق، وقارنت بين الصورة التي كانت تتمثل لها فيما مضى، والصورة التي تتمثل لها فيها الآن فقالت:

"حلمت في هذه المدينة أحلام الطفولة الأولى، ولما كنت أغمض عيني لأستعيد ذكرى فردوس طفولتي، كنت أدرك أن من عرف دمشق صغيراً حفظ في كيانه من جمالها أثراً ليس يُمحى، ثم عللت النفسَ بالعودة هذه السنة لأسمع تدفق أنهارها مستأنسة بعذوبة أهلها، مراجعة تاريخها الطويل في الشوارع والحجارة والأبنية، مستوحية من الأخربة والآثار روح العظمة الأموية ومجد صلاح الدين".

"ها أنذا في دمشق، أيها السيدات والسادة، فإذا بالمياه قد أضافت إلى حكايتها الدهرية حديثاً طريفاً. ها أنذا في دمشق. وكأني أبصر روح العز القديم تتململ في الأخربة والآثار، لترى الملوك والخلفاء والفاتحين، حاضرة هذه البلاد التاريخية، وآية الجمال في الصحراء، ولكني أشعر خصوصاً بأني في دمشق الجديدة، في الفيحاء الفتاة التي تستجمع قواها بعد الجراح والآلام، وتتحفز للنهوض والصعود نحو قمة الارتقاء. ولئن تعاون الكرم منكم، وحب تنشيط العلم في جعل هذا المسار لي عيداً، فقد أريتموني فيه رموزاً طالما تقنا إلى حقيقتها، ففي اتحاد الأندية رأيت رمزاً لاتحاد الأمة، وفي ارتفاع صوت المرأة قرب صوت الرجل، رأيت دليلا على تنبه الكرامة فيها، واعتراف الرجل بحقوقها واستعداده لمساعدتها، وفي اتفاق المسلمين والمسيحيين على الترحيب بأختهم السورية، رأيت عنواناً لمحو فروق المذاهب، ومتانة الوحدة القومية".

* * *

لم تكن ماري عجمي تكتفي بإلقاء خطبها ومحاضراتها في النادي الأدبي النسائي، بل كانت تدعو إليه - كما رأينا - كبار الأدباء والشعراء ورجال العلم، ولما أقعدها المرض والعجز، ظل النادي يواصل نشاطه الدؤوب، فحاضر فيه على سبيل المثال لا الحصر، منذ تأسيسه عام ١٩٢٠ وحتى اليوم، كل من الأدباء والعلماء والمفكرين: فارس الخوري، زكي الأرسوزي، أحمد الصافي النجفي، فخري البارودي، جميل صليبا، قسطنطين زريق، إميل كساب، أنسطاس شاهين، أبو سلمى (عبد الكريم الكرمي)، ميشيل خوري، صلاح الدين الكواكبي، عبد الرحمن الكيالي، إبراهيم الكيلاني، عفيف بهنسي، عبد اللطيف اليونس، بديع حقي، عبد الكريم اليافي، ميخائيل الله ويردي، ألفة الإدلبي، نعيمة المغربي، عزيزة هارون، كوليت الخوري، سعاد سلوم نصير، كوثر سلوم مسوح، جورج جبور، بشير زهدي، إسكندر لوقا، عرفان طويل، يحيى السيد، كمال الجابي، ديالا الحاج عارف، وكاتب هذه السطور، وغيرهم...

وإلى جانب هذه المحاضرات والأمسيات الأدبية والشعرية، أقام النادي احتفالات كثيرة في المناسبات الوطنية والقومية.



إنَّكِ السِّفْرُ إنْ سألتِ أجيبي

شعر: عبد الكريم السعدي

أنــشري الحــبَّ يــا شــآمُ وتيهــي

وافرُشــي الــدَّرْبَ بالــشَّذا والــورودِ

أنــتِ للــشّرقِ درَّة مــن جمــانِ

أنــتِ للكــونِ نغمــةٌ مــن نــشيدِ

أنــت للــدّهر رايــةُ في كيــانِ

رفرفَــتْ في الــسَّما بخفــقِ البنــودِ

مــن تــرى يعتلــي بكُــلِّ إبــاءِ

مُرْتَقــى العّــزِّ غــير فــذٍّ عَنيــدِ؟!

ضــارَعَ الحَــشْدَ في صِــراعٍ مريــرٍ

وانــبرى فارِســاً لِكُــلِّ الحُــشودِ

يَــزْحَمُ الأُفْــقَ بــالعُلُوِّ زَمانــاً

دَونَــهُ المــوتُ أوْ مَــلاذ الخُلــودِ

* * *

عَــبرَ الــشَّرق مــن قــديمٍ رِعــاعٌ

زَحْفُهُــمُ يَغْتَلــى بِــشَرِّ الوَعيــدِ

داهمــوا الــشَّام والكنانــةُ كانَــتْ

مَوئِــلَ الحَــزْمِ للكُمــاةِ الفُهــودِ

أيُّ قهــرٍ وأيُّ رومِ وغــدْرِ

مِــن قــديمِ ومِــنْ قــديمٍ بعيــدِ








أيُّ شـــرٍّ مـــن المغُـــولِ وهـــوْلِ
مِـــنْ تتـــارِ عَتُـــوا بكَيْـــدِ الحقـــودِ
أيُّ خطْـــبٍ مـــن الفرنجـــة أدهـــى
مـــن غـــشومٍ وقبـــضةٍ مـــن حديـــدِ
كلـــها أُلْجِمَـــتْ وكـــان فناهـــا
فـــوقَ أرضـــي بِغـــضْبَةٍ مـــن جُـــدودي
ههُنـــا صَـــوْلةُ الـــسباع فَتيهـــي
يـــا شـــآمُ وأنـــتِ أرض الأســـودِ
إن تـــصفحت في الوجـــودِ كتابـــاً
أو تفرســـت في كتـــابِ الوجـــودِ
أو تـــساءلت عـــن عظـــيم رفيـــعِ
أو تفحـــصتِ كـــل قـــولٍ رشـــيدِ
مـــن تـــرى غـــيرك المجيـــب لهـــذا
يـــا جنـــان الأطيـــار والتَّغْريـــد
ينهـــل الفخـــر مـــن معينـــك دومـــاً
كبريـــاء المنـــى وبـــشرى الـــسَّعود
بـــين جنبيـــكِ قـــد تربّـــى جـــنينٌ
وتـــسامى تـــاريخُ كـــلِّ العهـــودِ
إنَّـــكِ الـــسِّفر إن ســـألت: أجـــيبي
أوضـــحي ذاك واشـــرحيه وزيـــدي
عِـــشْتُ تاريخَـــكِ العظـــيمَ بفِكْـــري
كيـــفَ يُنـــسى وأنـــتِ أصـــلُ الوجـــودِ؟!







والحــــضارات في حِمـــاكِ توالـــت
عـــبرَ دهـــرِ بـــرحم أمٍّ ولـــودِ
كَـــمْ وكَـــمْ أنـــشأت هُنـــاكَ وكانـــتْ
هَهُنـــا قبلـــةَ الـــشّموسِ، فَـــسُودي؟!
يـــا لتاريخَـــكِ العظـــيمُ إذا مـــا
أبلـــغَ القـــولَ بعـــدَ صَـــمتٍ شَـــديدِ
فـــاهَ بالـــدُّرِ حـــين فـــاه وأجلـــى
مـــا تبـــدَّى إلى العَيـــان المـــشيدِ
أنّـــكِ الـــشّامُ والحقيقـــةُ دومـــاً
(قلعـــةُ العِـــزِّ في مجـــالِ الـــصُّمُودِ)
إنـــكِ الكـــبرُ والعطـــاءُ وجـــودٌ
ســـابِغُ البَـــذْلِ والجمـــالُ، فَجُـــودي
قـــد تحَـــدَّى بِكُـــلِّ حـــرفٍ مُـــضيءِ
وتحـــدَّى بكـــلِّ كـــشفٍ جَديـــدِ
كُـــلُّ تَـــلٍّ لديـــهِ حِقْبَـــةُ عَهْـــدِ
لَـــمْ يطِـــقْ دَفْنَهـــا بجـــوفِ اللُّحُـــودِ
كُـــلُّ شَـــطٍّ وكُـــلُّ وادٍ وتـــلٍّ
أنبـــأ الكـــونَ عَـــنْ عَريـــقِ مَجيـــدِ
ثـــارَ عَـــنْ صَـــمْتِهِ فكـــان حَرِيّـــاً
بالحـــضاراتِ والإبـــا والقـــصيدِ
إيـــهِ يـــا شـــامُ يـــا أميّـــةُ تيهـــي
قـــد تبـــوّأتِ قبـــلَ عَهْـــدِ الرَّشـــيدِ







غايـــــةُ الفخـــــرِ أنْ أراكِ وســــاماً
فـــوقَ كُـــلِّ الـــدُّنى بمَجْـــدٍ فَريـــدِ
فاســكُبي شَـــهْدَكِ المُـــذابَ بِثَغْـــري
وامْلَئـــي خـــافِقي بعبـــقِ الـــورودِ
بـــين فيحـــاؤُكِ الحِـــسَانُ تهـــادَتْ
بـــالغِلالاتِ مُـــشرَعَاتُ النُّهُـــودِ
أقـــسَمَتْ أنْ تَظَـــلَّ لَوْحَـــةَ فَـــنٍّ
خالِـــدِ الـــذِّكْرِ في جَمـــالِ القُـــدُودِ
كُلّهَـــا شـــامِخٌ تَطَلَّـــعَ كِبْـــراً
للـــسَّما بـــالرُّؤى ونَـــسْجِ البُـــرودِ
مُـــشْرأبَّ الأعنـــاقِ في كُـــلِّ دَوْحٍ
باسِـــمِ الثَّغْـــرِ للعِنـــاقِ الـــوَدُودِ
والطِّلَـــى خَمْـــرَةُ الخُـــدودِ تَبَـــدَّتْ
فَـــوْقَ نَهْـــدٍ وفَـــوْقَ قَـــدٍّ وجيـــدِ
وانتـــشى عـــالَمُ الجَمـــالِ بِكَـــاسِ
واكتـــسى حُلَّـــةَ المُحِـــبِّ العَمِيـــدِ
غايـــةُ الحُـــسن أنْ أراكِ بهـــاءً
فانهَـــدي جَنَّـــةَ الوُجـــو دِ الـــسَّعيدِ
عـــانقي درَّةَ الـــشآمِ وَفَـــاءً
تـــوأمُ الفـــرح والهنـــاءِ وعيـــدي
قِبْلـــةُ المجـــدِ أنـــتِ حـــينَ أراكِ
مَعْلَـــمٌ خالِـــدٌ لِطَـــودٍ عتيـــدِ







شام..

شعر: علي الحبيب

لــكِ شــامُ المجـدِ مــن قلــبي ســلامُ
وهُيــــامٌ لــــيس يرويـــهِ الكـــلامُ
فعلـــى عينيــكِ راح الــسِّلْمُ يهْمـــي
وعلـــى هُـــدْبيكِ قـــد نـــامَ الحمـــامُ
يـــا نجــومَ الليــلِ زيــديها ضــياءً
واســكُني فيهـــا إذا جـــاءَ الظـــلامُ
فأنـــا طِفْـــلٌ يُناغيهـــا، وصـــبٌّ
أســـرتْهُ مُـــذ دَنَـــا منـــهُ الفِطـــامُ
في ســـبيل الله لمْ تبخـــلْ ببـــذلٍ
هـــيَ قالـــتْ أنَّ بغـــدادَ الـــشآمُ
هـــيَ صـــوتُ الحـــقِّ بـــل كـــلُّ الأمـــاني
وإليهـــا البيْـــدُ ترنـــوْ والخيـــامُ
قـــسماً لـــو داس طمَّـــاعٌ ثراهـــا
لرأتْنـــا مِثـــل أسْـــدٍ لا ننـــامُ

* * *

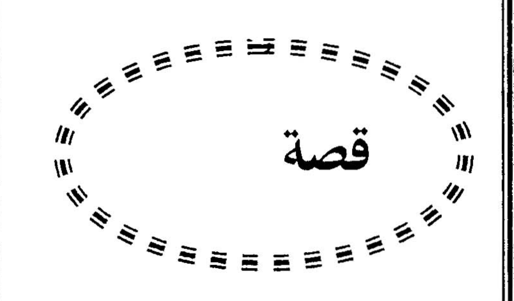






شـــامُ لمَّـــا ســـجَّلَ التـــاريخُ ســـطْراً
أنَّـــكِ العـــصماءُ مـــا قـــال اللِئـــامُ
وبـــأنَّ الـــصمتَ إذ تُبديـــهِ ســـيفٌ
يُرْهِـــبُ الأعـــداءَ إنْ جـــدَّ الخِـــصامُ
كـــان يعْـــني أنَّ مـــسْعاكِ حيـــاةٌ
وهـــواةُ الـــذلِّ في الـــدنيا رِمـــامُ
أنَّ ليـــلَ القهْـــرِ مـــا طـــالَ ســـيجلوْ
ليُغنّـــي فـــيضَ نجْوانـــا اليمـــامُ
وصـــهيلُ الخيـــلِ في الـــشرق المُـــدمّى
ســـيزولُ القيـــدُ عنـــهُ واللجـــامُ
بـــأبي يـــا رمـــزَ عُـــشّاقِ التـــفّاني
أنـــتِ نـــورٌ ينْجلـــي منـــهُ القَتـــامُ
أنـــتِ للأحـــرارِ لحـــنٌ قيْـــل عنـــهُ
أنَّـــهُ في وِقْفـــةِ العـــزِّ مُـــدامُ
شـــامُ إنْ أحيـــا فـــلا إلاكِ عـــشقي
أوْ تُنـــادي أنـــا في الكـــفِّ حُـــسامُ
واعْـــذريني إذ نَظمْـــتُ الوجـــدَ شِـــعْراً
فلعمْـــري أنـــتِ يـــا شـــامُ الغـــرامُ



دمشقة..



مازال (البولمان) القادم من حلب إلى دمشق يوغل في المدينة الأقدم.. ها هو جبل المهاجرين مزنر بالأضواء.. ها هي شوارعها مزدانة بالشجر والياسمين.. ها هي بيوت الكتاب هاجعة ومتواضعة وفي داخلها تسمو الروح.. وتتألق الكلمات.. وتتبرعم المبادئ والقيم.. وهذا هو (سوق الحميدية) شريانها النحاسي، يتصدّره الجامع الأموي الكبير، يرصف مع أحجاره القديمة المجد والعراقة.

ومن اتحاد، إلى متحف، إلى جبل، إلى ساحة الأمويين، إلى مكتبة الأسد، إلى فندق الشام، أماكن تزار ولا تعد كلها في بوابة التاريخ (دمشقة).. نقطة الصمود والعروبة، والاتزان. هي المجد العام والمجد الشخصي.. ولقد جعلتها مزاراً.. ورسمتها لوحة.. ومثلتها رمزاً..

وحين اقتربت منها، وهمست لها:

- أحبك يا دمشقة.. أحبك يا عبق ما كان.. وقبلة الآن.. فهل تسمعين.. هل تدركين..؟

إلاَّ أنَّ دمشقة لم تسمعني.. وكانت تنظر إلى جبل قاسيون بثبات لا يحيد..




يا جلّق المجد..

شعر: خالد سرحان الفهد

سـبحان ربـيْ..! حمـاكِ الواحـدُ الأحَـدُ

أأنـــتِ جنَّـــةُ أهـــل الأرضِ أم بلـــدُ..!

يــا شـامُ ثوبُـكِ مــن غـارٍ ومــن ألَـقٍ

يــا جُلَّــقَ المجـدِ كـمْ صُنَّاعُه اجتهـدوا

فأنـــتِ ســـفحٌ عليـــهِ الأيـــلُ ســـارحةٌ

أيـــكٌ بـــديعٌ وطـــيرٌ صـــادحٌ غَـــرِدُ

وللحمـــائمِ أســـرابٌ علـــى شـــغفٍ

ســـربٌ يـــروحُ وســـربٌ آخـــرُ يَفِـــدُ

ســبحانَ ربــيْ أرى الفيحــاءَ عــن كثــبٍ

يغـــارُ منهـــا علـــى أفيائِـــهِ الرَّغَـــدُ

فيـــستبيحُ هواهـــا قلـــبَ زائِرهـــا

وإنهـــا خـــيرُ مَـــنْ يهـــوى ومَـــنْ يَعِـــدُ

ومَـــنْ ســـواها سيـــشفي جُـــرح قاصـــدها

ومِـــنْ ســـواها جـــراحُ القلـــب تتقِـــدُ







يــا شــام يــا طفلــةً راحــت تحــدثني

عــن كيــفَ عنهــا إذا مــا جئــتُ أبتعِــدُ

الـــشامُ حـــصنٌ لأهليهـــا رأيـــتهُمُ

كمـــا الأســـنَّةَ في أحـــضانها اتحـــدوا

وعاهـــدتهم لغـير الحـــقِّ مـــا نـــصرتْ

وعاهـــدوها لغـــير اللهِ مـــا ســـجدوا

الـــشام حـــصنٌ لأهليهـــا رأيـــتُهمُ

ســـدّاً منيعـــاً بوجـــهِ الـــريح قـــد صـــمدوا

وغـــيرَ مـــا قـــدَّمتْ في الـــشحِّ مـــا أكلـــوا

وغـــيرَ (ماهـــا) علـــى الأيـــام مـــا وردوا

يـــا لائمـــي في هـــوى الفيحـــاءَ مـــن عَجَـــبٍ

ســـألتُ نفـــسي أمـــا أهـــل الهـــوى قـــصدوا

يـــا لائمـــي قُـــمْ سَـــل الأيتـــامَ إذْ قَـــدِموا

يومـــاً، فـــأمَّهُمُ في صـــدرها وجـــدوا

دمـــشقُ مـــاءٌ زلالٌ في شـــفا زمـــنٍ

بحـــرٍ، تـــساوى لَديـــهِ المـــوجُ والزبَـــدُ

بمثـــلِ جُلَّـــقَ هـــذي الأرضُ مـــا حَبِلَـــتْ

ومثـــلُ جُلَّـــقَ هـــذي الأرض لا تَلِـــدُ




الغناء و الموسيقى في دمشق في القرن ١٢هـ / ١٨م

بقلم:
محمد عيد الخربوطلي

دمشق الشام، شامة الدنيا كلها، وشمس العالم منذ القدم، قدسية الأرض، وأصالة الزمان، ومهد حضارة الإنسان، سفرها الخالد، ينبوع الفكر الإنساني المتفجر عبر العصور والدهور، لم تزدد مع الحق إلا جدَّة، فكانت أصيلة في حداثتها، وحديثة في أصالتها، وصفها ياقوت بأنها جنة الأرض بلا خلاف، وعدَّها الإمبراطور جوليان لؤلؤة الشرق، إنها دمشق ذات الثغر البسام المملوءة بالأدباء والعلماء والأعلام، دمشق كما عرفت بعطائها الواسع في جميع العلوم والفنون، عرفت أيضاً بأنها مدينة الفن والموسيقا والسماع والطرب الأصيل.

فالغناء ظاهرة مشتركة ذات طابع إنساني، تعم الناس جميعاً، والعرب والمسلمون من سائر الأمم، لذلك اعتنوا بالغناء والموسيقا والسماع.

إن سماع الموسيقا والغناء سقي لأرواح الناس وإيقاظ لهممهم وإسراع في سيرهم، ويهز الأرواح، وله تأثير نفسي في الطرب والإطراب، فحاجة النفس إلى السماع كحاجة الظمآن إلى الماء وحاجة المريض إلى الدواء.

وعندما تحدث الإمام أبي حامد الغزالي عن السماع، أبرز علاقته بالوجود، وذكر من خلال ذلك أن العالم العلوي يتمثل في الحسن والجمال، وأشار إلى الأنغام العذبة المنسجمة في كتابه (كيمياء السعادة)، ومما ذكره فيه: إن شرارات النار تتولد نتيجة احتكاك يحصل بين قطعتين من الحجر وتحرق الصحراء، فإن سماع أنغام عذبة ومتزنة تهز قلب الإنسان، وتجعله ينقاد لا إرادياً لها، وذلك إلى ترابط القلب مع الجوانب الروحية والمعنوية والعالم العلوي الذي يسمونه بالعالم الروحي.

ويرى ابن عربي في فتوحاته المكية أن السماع هو التغني بالقرآن حيث يقول:

إن التغني بالقرآن سماعنا
والحق ينطق عندَ كلِّ منطقِ

ومما ذكره: إن السماع مباح على الإطلاق لأنه لم يثبت في تحريمه شيء.

وابن القيم الجوزية يقول في مدارج الساكين: إن السماع أصل العقل، وحقيقته تنبيه القلب على معاني المسموع، وتحريكه عنها، طلباً وهرباً وحبا

وبغضاً، فهو حاد يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه، وقد فصل في كتابه هذا أقوال المؤيدين وآراء المعارضين للسماع، كما ذكر عدة أحاديث شريفة تحض على التغني بالقرآن.

كما يرى ابن حزم أن الغناء حلال ابتداءً من الحداء والنصب حتى الغناء المتقن الذي يقوم على النشيد والبسيط والهزج.

الموسيقى في دمشق في القرن ١٢هـ/ ١٨م

شهدت دمشق في هذا القرن المتابعة في تقاليدها الفنية السابقة في فن العمران والفنون التزينيية المعتمدة على الزخرفة الخطية ورسوم الأشكال النباتية والفسيفساء، والحفر على الخشب وغيرها، وكذلك يقال عن تقاليدها الفنية في ميدان الموسيقا والغناء.

مع أن المصادر تفتقر لمعرفة وتوضيح هذا الفن بشكل واسع، إلا أن الباحث يجد أنها لا تخلو من ذكر بعضها للفن والموسيقا عن ذلك العصر، ويمكننا القول أن من بعض سمات هذا العصر أن الفن والموسيقا ارتبط بالدين كثيراً، فالمقرؤون والمؤذنون والقائمون بالذكر من المتصوفة كانوا يعتمدون على الإيقاع والموسيقا، فالتجويد في القرآن مثلاً نوع من اللحن الموسيقي، وكذلك في الآذان والتواشيح الدينية، بل إن بعض المنشدين كانوا يستخدمون آلات موسيقية مثل الطبل والدف وغيرها، وقد أشار ابن كنان الصالحي في كتابه المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية إلى كثير من تلك الأذكار التي كانت تقام في مختلف الإحتفالات، وكان ابن كنان يشارك في بعضها، لذلك يمكن القول ولو بإيجاز إن هذا العصر عرف الموسيقا فناً عملياً وعلماً نظرياً.

أعلام الموسيقا في دمشق في القرن ١٢هـ/ ١٨م

- عمر بن شاهين (١١٠٧ - ١١٨٣هـ) الذي تفوق في باب الألحان الدينية، وهو أحد مشاهير القراء، وكان قد درس تلاوة القرآن بالألحان مع مراعاة التجويد، وقد فصل أسلوب دراسته الذي تلقاه عن شيخه المصري عمر بن محمد البصير، وقد قال عنه: "وبعد القراءة علمني الألحان من رسالة كانت عنده، وعلمني كيفية الانتقال من نغم إلى نغم" كما جاء في (سلك الدرر).

وقد تعلم عليه كثيرون في دمشق بعدما طار صيته ، وكثر الآخذون عنه خاصة الأتراك، فقد جاء في (سلك الدرر) أنه لا تخلو بلدة من بلاد الروم من تلميذ له أو تلميذين أو ثلاثة.

- سعيد السمان (١١١٨ - ١١٧٢هـ) الذي تفوق في مجال الموسيقا والغناء في دمشق، فقد كان له معرفة بالألحان والموسيقا، وعرف بحسن الصوت والأداء، كما كان بارعاً في اللغة والآداب، كما جاء في (سلك الدرر).

- صالح الحلبي الذي قال عنه محمد خليل الحراري في (سلك الدرر) أنه كان عارفاً بالموسيقا.

- صالح المزور (١٠٩٠ - ١١٥٢هـ) الأديب الدمشقي، كان ماهراً بالموسيقا والألحان وحسن الصوت، وقد تفوق في هذا الفن.

- محيي الدين السلطي، قال عنه المؤرخون كان مرجعاً لأصحاب فن الموسيقا والطرب، وله ديوان شعر مشهور وكتاب في الأدب يعرف بعنوان الجمانات بالأدب.

- أبو الوفاء عمر بن محمد اليافي (١١٧٣ - ١٢٣٣هـ) الذي ولد في يافا وطلب العلم فيها مبكراً، ثم رحل في طلب العلم إلى عدة بلاد، لكنه اختار دمشق ليقيم فيها طويلا حتى وفاته، وهو من الذين اهتموا كثيراً بالسماع، والغناء، وله شعر كثير في ذلك، ومنه قوله:

نحن قوم لنا السماعُ غذاء
ولداءِ القلوب فينا شفاء
هو روح الأرواح من قوة الحا
ل به حين يُستمد الغناءْ
والمغني قد راح من راح كأسي
مطرباً إذ يُريده الإصغاءْ
حبذا حبذا سماعُ الأغاني
حيث يُجلي الإنشادُ والإنشاءْ




هذي دمشق..

شعر: حسن أحمد سعيد أسبر

هـــذي دمـــشقُ، مفـــاتيح القلـــوب لهـــا
وغوطـــةٌ للـــهوى، في القلـــب تزدهـــرُ
وعاشـــقوها، لهـــم، منهـــا مودتهـــا
وورِدُهـــا، والنـــسيمُ المـــنعشُ العطـــر
وراحـــةٌ لنفـــوسِ المـــرهقينِ بهـــا
حيـــثُ الجمـــالُ، ولا هـــمٌّ، ولا كـــدرُ
والغيـــدُ تخطـــر، في أحلـــى مظاهرهـــا
فيفـــرح الـــورد، والأطيـــار، والثمـــر
وللعـــصافير، ألحـــان محببـــة
تـــصبي النفـــوسَ، ولا نـــايٌ ولا وتـــرُ
والـــسائحون رأوا فيهـــا مـــسرتهم
مـــاء نمـــيرٌ، وظـــل مـــدّه الـــشجر
هـــذي دمـــشقُ، وأســـراب اليمـــام بهـــا
ســـرب يغـــط، وســـرب راحَ ينتظـــر
علـى ضفاف الهـوى، والـشوق مـن بـردى
وخـــضرة، تترامـــى، بُعْـــدُها النظـــر
هنـــا تنـــامُ، علـــى الأعـــشاب ناضـــرة
والفـــلُّ حولـــك، والصفـــصاف والحـــوَرُ
هنـــا يغـــني لنـــا التـــاريخ أغنيـــةً
قديمـــةً، صـــاغها الإزميـــل، والحجـــر
في كـــل ســـوق، تـــرى فيـــه لهـــا أثـــراً
وكـــل خـــانٍ لـــه مـــن ســـحرها أثـــر
فـــسوق ســـاروجة، يبـــدو لزائـــره
كأنـــه حقـــب التـــاريخ، تختـــصر
أرى ســـيوفَ دمـــشقٍ، في جواهرهـــا
وتبرهـــاً، والـــتي في وحـــدها الـــشرر







أرى النحـــاس، الـــذي صـــاغته آنيـــةً
تَزخرفــتْ، وجههــا، الأغــصانُ، والزَهَــرُ
أرى الــدمقس الموشــى، في نعومتــه
إلى سمرقنــد حيــث الفــرسُ، والخــزر
هــذي قوافلــها، درب الحريــر لهــا
لم يثنهــا عــن مــداها، الخــوف، والحــذر
هــذي دمــشق الــتي امتــدتْ حــضارتها
حيــث الــصواري، وحيــث التــبرُ يعتمــر
هنــا القــلاع، هنــا الأســوار شــاهدة
علــى الزَّمــان، فهــذا المجــدُ والظفــر
هنــا القــصور، هنــا دور، وأضــرحة
هنــا المعابــد، والخانــات، والكــبر
مــن بــاب شــرق، ومــن تومــا، وجابيــة
درب الفتــوح، إلى اليرمــوك يــا عمــر
وقائــد الجــيش، ســيف الله منــصلتاً
علــى العــدو، الــذي قــد هــدّه، الــضرر
هــذي الجيــوش، كــراديس، صــدقت بهــا
جحافــلَ الــروم، في الميــدان تنــدحر
إلى دمــشق، تــزف النــصر مــن فــرح
إلى الجوامــع، كــي تُتلــى بهــا الــسُورُ
إلى الكنــائس، والأجــراس، صــادحة
النــصر، والعــز، والرّايــات تنتــشر
وقاســيون سمــا مــن فــوق ربوتهــا
علــى ذراه، الغيــوم الوطــفُ تنهمــر
أولاد آدم، نــامــوا، في مغارتــه
وفي ثــراه المنــدى، حولهــا قــبروا
هــذي دمــشق، وفي أحيائهــا رقــدتْ
أرواح أبطالهــا الأحــرار، وانتــصروا







منهم صلاح وفي حطين ألقى بهم
إلى جحيم من النيران، قد حشروا
وحرر القدس، في فخر، وفي شرفٍ
وآمن الناس، من عزوا، ومن صغروا
ومنهم يوسف في ميسلون سما
على العلى، وتحداهم، إذا عبروا
ومنهم فتية في الشام تزحمهم
في الغوطتين، فزال الخوفُ، والخطر

* * *

دمشقَ، يا قِدَمَ التاريخ في وطني
لأنتِ أول بيتٍ، حلّهُ البشر
معالم الشام، في غرناطةً ظهرت
فالقصر منبعها، والفن، والصّور
والزُّخرفات، وما أبدت عجائبها
من الجمال، وما يستأنس البصر
تلك المسايلُ، والأحواض زاهية
في مائها، تسبح الأقمار، والدرر
روائع الفن، تبدو، في أوابدها
في حضن قرطبة والشام تبتكر
وكل حسناء، ضاعتْ في حدائقها
ضوءٌ دمشقيٌّ، ذاك الحسن، والخفر
دم العروبة يجري، في جداولها
وجدها المجتبى، عدنانُ، أو مضر
دمشق، أغنية الدنيا، وجنتها
على الزّمان، ولا كذبٌ، ولا هذر
هذي دمشق، على الأيام، خالدة
تبقى هوانا، وفيها المجدُ، والكِبَرُ







دمشق حبيبتي..

شعر: عامر درويش

مُضنَاك أضحى قتيلَ الطَّرْفِ.. مُضْناكِ
يا غادةَ الحُسْنِ، هلْ في الرَّسْمِ مِنْ باكِ؟

تبكي الطُّلولُ على عينيكِ رونقَها
وتندبُ الطيرُ حينَ الشَّدْوِ مَغْناكِ

يا غادةَ الحسن كمْ من عَبْرةٍ هطلتْ
فما استجابَ لها في الناس مِنْ شاكِ

يا سَرْحةً في ظلالِ الأمس، وارِفةً
ودَفْقَةً من خيالِ المُدْنَفِ الشَّاكي

رحلتِ حين استقامَ الحبُّ، أوَّلُهُ
نَدٌّ، وأخِرُهُ قَفْرٌ كمَمْشاكِ

أتذكرين الصِّبا في ظلِّ مملكةٍ
من الهوى أفصحتْ سرِّي بنجواكِ؟؟

لولاكِ ما برزتْ في الناس ساطعةً
شمسُ الأماني، وفخرُ الحُلْمِ.. لولاكِ

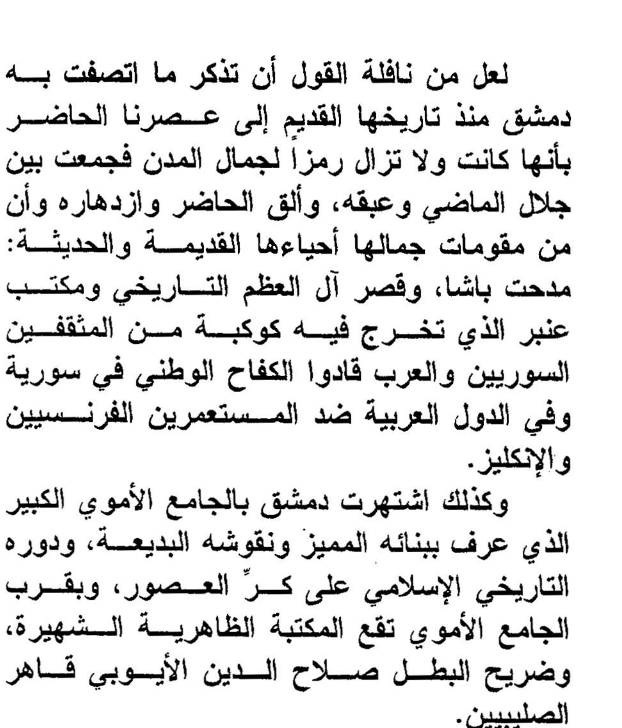
في خافقي فِكَرٌ، مازلتُ أنسجُها
شِعْراً، وأُلْقِنُها من ثغريَ الحاكي

حبيبتي.. من تليد المجد آصِرُها
ومن رغيد السَّنا والحبِّ أحلاكِ

دمشقُ.. يا غادتي أهلُوكِ ما رفعوا
شُمَّ الرؤوسِ، ولا الهاماتِ... لولاكِ




دمشق رمز الجمال والنضال



بقلم: أحمد سعيد هواش

لعل من نافلة القول أن نذكر ما اتصفت به دمشق منذ تاريخها القديم إلى عصرنا الحاضر بأنها كانت ولا تزال رمزاً لجمال المدن فجمعت بين جلال الماضي وعبقه، وألق الحاضر وازدهاره وأن من مقومات جمالها أحياءها القديمة والحديثة: مدحت باشا، وقصر آل العظم التاريخي ومكتب عنبر الذي تخرج فيه كوكبة من المثقفين السوريين والعرب قادوا الكفاح الوطني في سورية وفي الدول العربية ضد المستعمرين الفرنسيين والإنكليز.

وكذلك اشتهرت دمشق بالجامع الأموي الكبير الذي عرف ببنائه المميز ونقوشه البديعة، ودوره التاريخي الإسلامي على كرِّ العصور، وبقرب الجامع الأموي تقع المكتبة الظاهرية الشهيرة، وضريح البطل صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين.

وهل ننسى ساحة المرجة التي ترمز إلى أهم معالم نضال دمشق وكفاحها ضد حزب الاتحاد والترقي التركي، وعلى ساريتها تأرجحت أعناق شهداء السادس من أيار عام ١٩١٦م.

ويأتي المجلس النيابي السوري في فاتحة رموز النضال العربي السوري ضد المستعمر الفرنسي وما أصابه من تدمير وخراب واستشهاد بعض الجنود السوريين الذين كانوا يحرسونه في التاسع والعشرين من أيار لعام ١٩٢٥م.

ومن معالم دمشق التاريخية أيضاً جامعة دمشق وما ترمز إليه من كونها منهلاً كبيراً للعلم والنضال الوطني.

وفي دمشق ساحات شهيرة سميت بأسماء بعض شهدائها، مثل ساحة المجاهد محمد الأشمر، وساحة الشهيد يوسف العظمة التي يزينها تمثاله الرائع، وكذلك ساحة الشهيد العقيد الركن المجاز عدنان المالكي التي يطل منها تمثاله الشامخ وهو يرنو بنظره إلى البعيد؛ أضف إلى ذلك ساحتي الأمويين والعباسيين في مدخلي دمشق الغربي والشرقي وترمزان إلى تاريخ دمشق العريق.

ومما يزيد في جمال دمشق وشموخها تربعها على سفح جبل قاسيون رمز الصمود والتحدي،

ويمر من تحته نهر بردى المعطاء الذي يجلب الخضرة والجمال لمدينة دمشق وما قبلها من منبعه في سهل الزبداني حيث نرى المقاهي تنتشر على ضفتيه، يرتادها أبناء الشعب لينعموا بجمال الطبيعة الدمشقية.

ويكتمل جمال دمشق بغوطتيها الشرقية والغربية اللتين تعدلان مناخ دمشق، وتجلبان إليها الأمطار وتفتخر دمشق برجالاتها وشخصياتها الوطنية المعروفة بنضالها أمثال: الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ويوسف العظمة وفارس الخوري، وحسن الخراط، وفخري البارودي، والمربي قسطنطين زريق، والأستاذ علي الطنطاوي، والدكتور عدنان الخطيب، والرئيس محمد كرد علي، والمجاهد عز الدين التنوخي، والأمير الدكتور مصطفى الشهابي والشيخ عبد القادر المبارك، وشفيق جبري، والمربي أديب التقي، والشيخ بهجة البيطار وطاهر الجزائري والشيخ زين العابدين التونسي وقد أنجبت دمشق شعراء كباراً، كانت دمشق في وجدانهم ومخيلتهم وغنوا لها أعذب الألحان، نستعرض بعضاً منهم: محمد البزم، خليل مردم، أنور العطار، وجورج صيدح.

وقد عرف هؤلاء الشعراء بفحولتهم الشعرية ووطنيتهم وقوميتهم وجهادهم في سبيل الوطن والأمة العربية وقد عكس ذلك شعرهم وسلوكهم.. فنرى الشاعر محمد البزم يرسم الوطن العربي كله في شعره، ويصف حبه لكل بقعة من بقاعه فيقول:

جلق منبت جسمي وعلى
دجلة محتد قومي الغابرين
وإلى بغداد مهوى النفس لي
أنةٌ تنتابني حيناً فحين
وحشاً تهفو إلى أم القرى
مهبط الوحي ومهد الراشدين
وفؤاد مؤلمه في يثرب
كاهل المجد وأرض الفاتحين

وهكذا جعل لكل بقعة من بقاع الأرض العربية مكاناً في قلبه، فالشام مسقط رأسه، والعراق موطن آبائه، وقلبه يهفو إلى مكة المكرمة (أم القرى) وإلى المدينة المنورة (يثرب) أرض الفاتحين.

ولمدينة دمشق مكانة سامية في قلب الشاعر محمد البزم، فقد سلبته دمشق قلبه وخصها بكل عشقه وهيامه، وقد صدَّر ديوانه بقصيدة تحمل عنوان (دمشق) وتزيد أبياتها على مئة وستين بيتاً، بدأها بالحديث عن ماضيها وانتشى إلى وصف جمالها؛ وأعقبه بالكلام على دور بني أموية فيها، وعن جيوشها وشبابها؛ وعن نهر بردى وفروعه السبعة، وعن غوطتها الفيحاء وقال فيها:

ريحانة الدنيا وظل نعيمها
من قبل مولد يعرب وثمودا
بسمت بها الدنيا إلى عشاقها
فتناهبوا وجناتها تخديدا
تلهوا بأفئدة الظباء ظباؤها
لهو الفرائر ما عرفت مكيدا
من كل فاتنة المحاجر إن رنت
أو أومأت ذهب العميد عميدا
خضرت ورنحها الدلال وهزها
مرح الصبا فتدافعت تهويدا

ثم يأتي الشاعر البزم على ذكر نهر (بردى) واصفاً ماءه الصافي وانعكاس الشمس عليه، ومن ثم ما يرفده من فروع، فقال مخاطباً دمشق:

أخت الخلود وما الخلود مفارق
برداك ما عشق الأنيس خلودا
صاف كخلاق الكرام يحثه
كرم النَّجار لينعش المفؤدا
مترقرق طوع النسيم مسلسل
كخواطر الشعراء رمن قصيدا
متكسر كالماس تلبسه الصبا
زرد الحبيك وما شف زرودا

إلى أن قال:

حتـــى إذا بلـــغ الحـــدود وذللـــت
خطواتـــــه أخــــدوده تعبيـــــدا
رفدتـــــه (فيجتـــه) العريقـــة بالنـــدى
رفـــداً كمـــا انـــبلج الـــصباح عمـــودا

ثم يصف غوطة دمشق فقال:

ســافر بلحظــك حيــث شــئت فلــن تــرى
إلاّ عجائـــب توجـــب التوحيـــدا
أنّـــى التفـــت فجـــدولٌ متـــرنمٌ
أو نـــائحٌ فـــي أيكـــه تغريـــدا
وســـواكب ومواكـــب وكواكـــب
تجـــري النحـــوس بجـــوهن ســـعودا[1]

إلى أن قال:

فـــتن الـــصباح بهـــا وغـــار مـــساؤها
فتباريـــا برابهـــا ورفـــودا
وافتـــر ثغـــر الليـــل عـــن أنـــدائها
حببـــا علـــى أزهـــار منـــضودا
يـــسطو علـــى عبـــق العبيـــر عبيرهـــا
أرجـــاً ليـــنعش أنفـــساً وكبـــودا

لقد أظهر الشاعر محمد البزم جمال دمشق الطبيعي المتمثل بغوطتها الغناء ونهرها (بـردى) المعطاء، كما أظهر أمجادها التاريخية، وبطـولات أبنائها، فهو شاعر دامشق بحق.

وقد سار على نهج الشاعر محمد البزم شاعر دمشقي آخر هو الشاعر خليل مردم بـك رئـيس مجمع اللغة العربية بدمشق (سابقاً)، وقـد ضـمَّنَ ديوانه قصائد كثيرة عن دمشق ورموزهـا مثـل: دمشق، بردى، الغوطة، قاسيون، ذكرى الـشهداء، ذكرى يوسف.

يقول الدكتور سامي الـدهان فـي مقدمتـه لديوان الشاعر خليل مردم بك:

".فقد كان يؤمن بأن للنضال عليه حقاً، لـذلك عاش حياته كلها يعمل للأدب ويتغنى بالثورة، فهم في برزخين أبداً ينتقل من هذا إلى ذاك، كما ينتقـل الطير من فنن إلى فنن، فكان يـنظم الـشعر فـي الجمال كما ينظمه في خير وطنه وفي إثارة الشعب ورد الطغيان ورفع الظلم، فكانت منه قصائد عامرة نظمها في الوطنية والعروبـة وطـرد الفرنـسيين ردَّدتها دمشق وتغنت بها..."

وقد انعكس ذلـك حبـه لوطنـه (سـورية) ومدينته (دمشق) التي ولد وترعرع وعاش طـوال حياته فيها وضمه ترابها..

وقد زاد عدد أبيات قصيدة _دمـشق) علـى الخمسين بيتاً، استعرض فيها مكانة دمـشق فـي قلبه وحبه الذي لا يوصف لهـا، ذاكـراً جمالهـا، وجمال نهرهـا (بـردى) وغوطتيهـا الغنـاوتين، وتاريخ دمشق العريق منذ العصر الراشـدي إلـى العصر الأموي وانطلاقة الفتوحات العربية منها إلى مشارق الأرض ومغاربها، ودفـن البطـل صـلاح الدين الأيوبي فيها؛ كما يأتي علـى ذكـر موقعـة (ميسلون) واستشهاد البطل (يوسف العظمة) فقال فيها:

(أدمـــشق) مـــا للحـــسن لا يعـــدوك
حتـــى خصـــصت بـــه بغيـــر شـــريكِ
أشـــغفته حبـــاً وتمـــت فـــؤاده
فغـــدا بكـــل طريفـــة يَـــصفيكِ
ســـبحان مـــن أعطـــاك أشـــهد أنَّـــهَ
وفّـــى وزاد بـــسببه معطيـــكَ
فبـــرزتِ للأبـــصار أرْوع مظهـــرٍ
فـــي الحـــسن والإبـــداع عـــن باريـــكِ
مهـــوى القلـــوب لكـــل روحٍ راحـــةٌ
ولكـــل عـــينٍ قـــرةٌ وأديـــك

لقد أبدع الشاعر خليل مردم بك وأجاد فـي وصف دمشق وطغى على الوصف حبـه العميـق لدمشق، فجاء الوصف غاية في الروعة والإتقان.

ثم يأتي الشاعر على ذكر نهر (بردى) فقال:

وكأنمـا (بـردى) سـبائكُ فـضة
تجـري علـى درٍّ بهـا مسلوكَ
وكأنمـا حـصباؤه وبريقهـا
عقـدُ مـن الألمـاس فـي هاديـك

ولا ينسى وصف الغوطتين إذ قال:

(الغوطتـان) وأنـت مثـل جزيـرة
بحـران يلتطمـان فـي شـاطيك
و(الغوطتـان) وأنـت بـدرٌ سـاطعٌ
لكليلـة ظلمـاءَ ذات حلـوك

ثم يستعرض الشاعر خليل مردم بك واقع دمشق التاريخي وممن زارها من الشخصيات الإسلامية المعروفة فقال:

(عمـر) الـذي وطئـتْ سنابك خيلـه
(إيـوان كـسرى) قـد ترجـل فيـك
رفعـت (أميـةُ) فيـك أعظـمَ دولـةَ
كانـت قواعـدها سـيوف بنيـكَ
كـم مـن شـموس لـيس يغـرب نورهـا
مـن (عبـد شـمس) ضـمَّتها ناديـكِ

ثم يصل إلى ذروة الحب لدمشق فقال:

تهـوى قلـوبهمُ إليـك صـبابةً
لـولا مـشاعر (مكـةَ) حجُّـوك
لـولا حمـى (البيـت الحـرام) وشـطره
عنـد الـصلاة وجـوههم وَلَـوكِ

وفي الختام يذكر كارثة (ميسلون) وما انتهت إليه من مآس كان أولها استشهاد القائد البطل (يوسف العظمة) وتفكك الجيش العربي فقال:

فـي (ميـسلون) أسـى يطـولُ وحـزةٌ
عانيهمـا مـا كـان بـالمفكوك
لـم أدرِ يومئـذ أمنتـدُ بُـوك أمَ
أهلـوك أم حكـامهم وتـروك

مـا أنـسَ لا أنـسَ وقـدْ غـدت
فـي شـهر (آب) بوبلهـا تبكيـك

ولمثل الشهيد (يوسف العظمة) ورفاقه يستحق أن تبك العيون دوماً.

ومن الشعراء الدمشقيين الذين هاموا بحب مدينة (دمشق) وتغنوا بها وأشادوا بطبيعتها الجميلة الخلابة، وبطولة أبنائها البررة الشاعر الكبير (أنور العطار) الذي عرف بإبداعاته الشعرية التي تضمنها ديوانه (ظلال الأيام)، ولعل قصيدته عن (غوطة دمشق) لدليل قاطع على عبقريته الشعرية وحبه لمدينة (دمشق) إذ قال فيها:

عـالم مـن نـضارة واخـضرار
فـاتن الوشـي، عبقـري الإطـار
ضـم دنيـا مـن البـشاشة والبـشـ
ـر ومـا تـشتهيه مـن الأوطـار
مـن فـراش علـى الخمائـل حـوّا
م وطيـب مـن النواسـم سـارِ
وينـابيع حُفّـل بالأغاريـ
ـد تتنـاجى بالـساكب الهـدّارِ
وأقاصـيص تـسكر القلـب والـرو
ح روتهـا قيثـارة الأطيـار

لقد تفنن الشاعر أنور العطار في وصف غوطة دمشق، فلكأننا نراها عياناً، فجاء وصفه صورة حية عن جمال الغوطة، من نضارة واخضرار، إنها لوحة رائعة لمصور فنان.. وقد أجاد الشاعر في انتقاء الألفاظ ووضعها في المكان المناسب.. فحلّق في وصف الطبيعة الجميلة الذي أسر بجمالها ونقل إلينا هذا الجمال في أحسن صورة، فنرى الخضرة ونسمع أغاريد الأطيار تطلق ألحانها الشجية من قيثارة الطبيعة.

يقول الأديب عبد الغني العطري:

"لقد أحب شاعرنا الطبيعة، وهام بها هياماً عجيباً، ولعله تأثر بذلك بالشاعرين الفرنسيين: لامارتين، وألفريد دي موسيه."

ووصفه معروف الأرناؤوط بقول بايرون:

"قيثارة بعض أوتارها للغناء وبعضها الآخر للبكاء"

لم يقتصر شاعرنا العطار على حب الطبيعة وهيامه بها، بل طرق باب الشعر الوطني والقومي، فنقل نضال سورية العربية ودمشق من أجل الحرية والسيادة بشعر جزل العبارة، عذب اللفظ، ولعل وجوده في (بغداد) وتدريسه للأدب العربي في ثانوياتها ومعاهدها وتأثره بجوها النضالي العروبي نمّى عنده هذا الحس الوطني العروبي، تجلى بقصائده:

دمشق، بردى، وعيد الجلاء، التي نقل لنا فيها أحاسيسه وفرحته بهذا اليوم الأغر فنقلها لنا نضرة من مكان الحدث وحرارته، في عيد الجلاء الأول ١٦ نيسان ١٩٤٦م فقال:

دمشق ترفل في أفواف وادينا
غنّى لها (بردى) هيمان مفتونا
السلسلُ العذبُ يهدي النيربين هوى
كالروض يعبق أوراداً ونسرينا
و(قاسيون) انتشت بالنور هامته
كأنه قبسُ الأنوار من (سينا)
يومٌ أغرُ على الأيام مؤتلق
مُشهَّرٌ ما يزال الدهر ميمونا
يا صفحة قد كتبناها بأيدينا
بالدمع والدم قد زينتْ أفانينا

أجل إنه يومٌ أغر، كتب بدم الشهداء ودموع النساء، إنه يوم الجلاء وقد خص شاعرنا العطار مدينة دمشق بقصيدتين نذكر واحدة منها بعنوان (دمشق) جمع فيها جمال وصف الطبيعة الدمشقية ونضالها الوطني، فَخلَّدَ بها دمشق، إذ قال منها:

دمشق ائتلاف الربيع الجديد
وإشراقة الفجر ابتسم
وريحانة نديت بالهدى
وز بقة رويت بالحكم
على مهدها رائعات النبوغ
وفي ساحها قبسات الهمم
وفي تربها المسك بمسك الخلود
وفي جوها العطر عطر الشيم
تندت مسارحها بالسماح
وماجت أباطحها بالكرم
وما هي إلا كتّاب البقاء
وما هي إلا سجل العظم

وهذا حال دمشق، جمال طبيعة، وعراقة وعبق تاريخ، وذلك يستحق الخلود.. وقد خصَّ شاعرنا أنور العطار نهر (بردى) بقصيدة طويلة تجيش بالعاطفة الصادقة ضمنها حبه لهذا النهر الخير (بردى) الذي يخاطبه تحبباً (برداي) إذ قال منها:

برداي الحبيب يا فرحة الرو
ح ويا منية الهوى ما تمنى
يا شفاء القلوب يا كوثر الخلـ
د ويا منهلاً يناسم عدنا
أنت نجواي إن أظلني الشجـ
ـو وأنحى عليَّ سقماً ووهنا

لقد أحب الشاعر أنور العطار (دمشق) طبيعة ونضالاً، فوصفها أجمل وصف، فكان شاعر دمشق بحق.

وهناك شاعر دمشقي عريق آخر طوحت به الأيام فقضى معظم سنوات عمره بعيداً عن الوطن، فنسيه الكثيرون من أبناء وطنه، وأرقَّهُ الحنين إلى الوطن، وأماته الشوق إلى دمشق، فانعكس في شعره الحنين إلى دمشق.. إنه الشاعر جورج صيدح الذي عرف بشعره الرائع فكان من طليعة الشعراء العرب السوريين المهجريين الذين انعكس في شعرهم الهم الوطني والقومي العربي في دواوينه (النوافل، نبضات، حكايات مغترب، شظايا حزيران، آفاق أشواق، ديوان صيدح - الجزء الأول والثاني، إضافة لكتابه القيم: أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية (ثلاث طبعات ١٩٥٦ - ١٩٦٤م - ١٩٦٥م.

وفي ديوانه: "آفاق أشواق نقرأ له قصيدة (حنينٌ إلى دمشق) عبَّر فيها عن أشواقه الحارة وحنينه الجارف إلى مسقط رأسه (دمشق) يتأثر قارئ القصيدة تأثراً عميقاً بعاطفة الشاعر جورج صيح الجيَّاشة وأشواقه الملتهبة، يجللها صدق العاطفة وجمال الشعر العمودي الأصيل المقفى فلنقرأ بعض أبياتها:

ذكرتُها نائياً والدمعُ هتَّانُ
أمٌّ تناست بنيها حالما بانوا
في قلبها من ندى أجوائها شَيَمٌ
وفي فؤادي لذاك القلب نيرانُ
شتىً الموارد يجري بين أنهرها
من الحنّو على الأهلين غدرانُ

إلى أن قال واصفاً حنينه وأشواقه إلى دمشق إذ قال:

دمشق، إن قلتُ شعراً فيك ردده
قلبي كأنَّ خفوق القلب أوزانُ
أنا وليدك يا أماه كم ملكت
ذكراك نفسي وكم ناجاك وجدانُ
أنا علَيل النوى لا برء يُنعشني
إلاَّ نسيمٌ عليلٌ منك ريّانُ
منذ افترقنا نعيم العيش فارقني
والهمُّ والغمَّ أشكالٌ وألوان

أيَّةُ عاطفة جياشة هذه، أيّ حب وحنين إلى دمشق هذا الذي اسمعنا إياه الشاعر الدمشقي المغترب جورج صيدح؟! أي عاطفة صادقة ملتهبة في عذوبة شعر هذا الذي نقرؤه؟ لقد اجتمعت في هذه الأبيات كل ما ذكرناه، وهذا ليس غريباً على شاعرنا الصدّاح ويسترسل الشاعر جورج صيدح في قصيدته (حنينٌ إلى دمشق) باثاً حنينه وأشواقه إلى مدينته (دمشق) مظهراً مكانتها وعراقتها وموقعها الجميل إذ قال:

أمُّ العروبة عينُ الله تحرسها
عند الشدائد إن أبناؤها لا نوا
نامت على جبهة الأدهار هانئة
بما يكيدلها في الغرب سهرانُ
تطلّ من (ربوة) الأزهار هامتُها
كأنها من كتاب الحسن عنوانُ
مختالة في برود من زنابقها
ما اختال في مثلها يوماً سليمانْ
سريرها (غوطة) في مهدها اضطجعت
وألقت الرأس فاستلقاه (حورانُ)

لقد تلاقى الشعر الجميل المضمخ بالعاطفة الصادقة الجياشة مع حب جورج صيدح وحنينه إلى دمشق التي وصفها أجمل وصف، فكانت تلك القصيدة لوحة مصورة تكاد تنطق.. ولم يغب عن بال الشاعر جورج صيدح نهر (بردى) فخصه بقصيدة رائعة، قال منها يناجي (بردى):

حلمتُ أني قريبٌ منك يا بردى
أبلُّ قلبي كما بلَّ الهشيم ندى
دمشق أعرفها بالقبة ارتفعت
بالمرجة انبسطت، بالشاطئ ابتردا
بالطيب يعبقُ، بالوادي وأطيبه
في تربة الأرض غذَّاها دم الشهدا

لقد اجتمعت في هذه الأبيات حنين المغترب وشوقه إلى نهر بردى الخيِّر، وإلى مدينة (دمشق) التاريخية، التي جمعت بين عراقة التاريخ وجلاله وعظمة الحاضر وبهائه.. عبّر فيها الشاعر جورج صيدح عن مكنونات نفسه التي تلتهب بنار الغربة، متلمساً من نهر (بردى) أن يجعلها برداً وسلاماً..

ألف تحية إلى دمشق المتألقة على الدوام، بمناسبة عرسها (عاصمة الثقافة العربية) وتحية لشعرائها الذين تغنوا بجمالها ونضالها.





دمشق..



شعر: حسن علي تاج

لا تسألي!! أأُحبها بلدي
ودمشق لي قلبي ولي كبدي

يا للسؤال السيف يذبحني
ويهدُّ من أجَلي ومن جلدي

أرتاب في نفسي ومعتقدي
غير الإله الواحد الأحد

إلاّ دمشق فإنها أمي
وأبي وأغنيتي وشمس غدي

هي كل آمالي وآلامي
ومنى الفؤاد الصامد الجَلِدِ

لا تسأليني.. إنني خجل
ماذا أقول؟؟ بحبها الأبدي

هو كل عمري، كل أحلامي
وكل ما في العيش من رغد

يا حبها الغالي يعذبني
يغتالني ويعيش في خلدي

إن نمت أو أغفيت شاغلني
هذا الهوى نومي وفي سهدي

قد كان لي قلب أعيش به
ومذ رحلت القلب لم يعدِ

فيا سواد العين يا بلدي
يا موئل الأحباب والولد

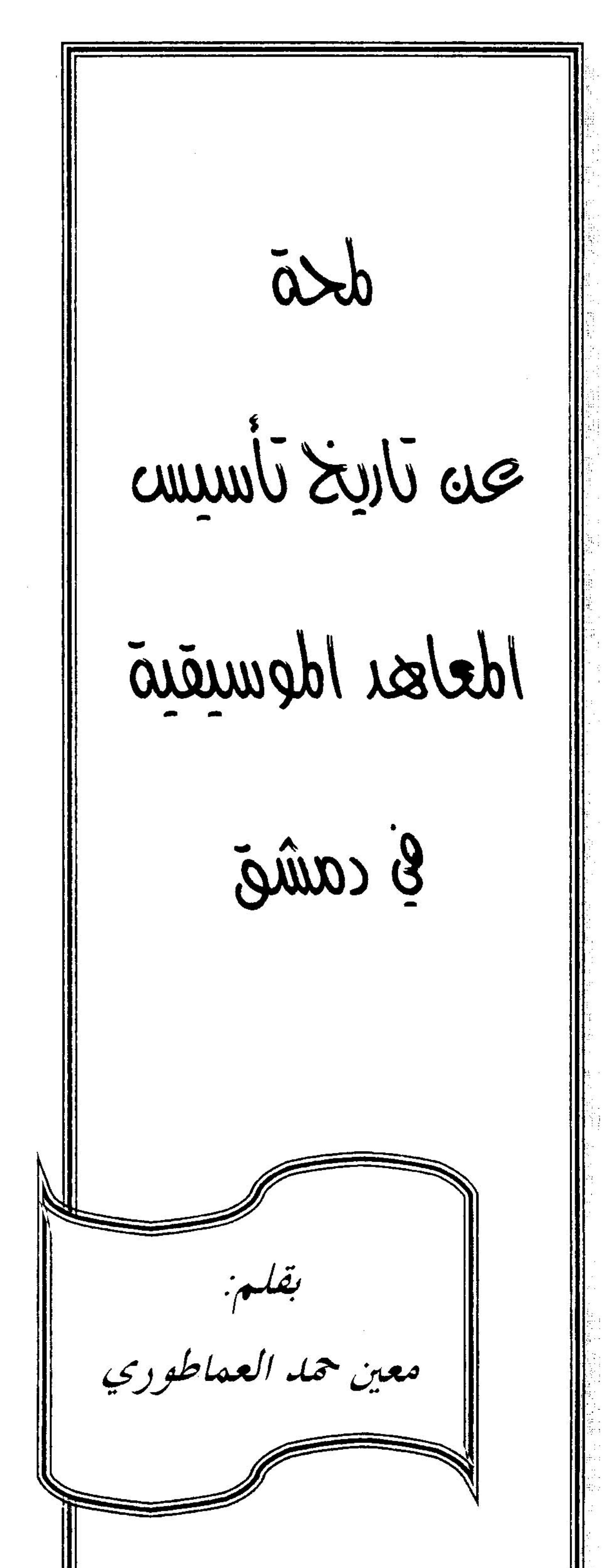
يا خفقةً في الروح والجسد
ويا صلاة الله في الأبدِ

إني لأبذل يا دمشق دمي
عمري وأرخص نبضة الجسد

حتى تظلي الدهر شامخة
لا ترضين الضيم من أحد







تعتبر دمشق المدينة الأقدم في العالم ليس لأنها المدينة المأهولة بالسكان فحسب، إنما لأنها المصدر الأساسي للحضارة والإبداع العربي منذ القدم حتى وقتنا الحاضر، فقد قدمت للعالم العديد من المواهب الفنية والأدبية والإبداعية على الساحة الثقافية العربية، وإذ أكتب عن دمشق فإنني سأكتب عن ما قدمته من معاهد موسيقية، ليشهد التاريخ بأن ياسمينها المعطر برائحة الوطن ظل يعبق بنسائم زكية لتنتج في القرن الماضي أعلام الفن والموسيقا، رغم اشتداد ظلام المحتل الفرنسي الغاصب.

عاشت دمشق مثل أغلب المدن العربية تحت الاحتلال العثماني والانتداب الفرنسي إلا أن نضال الشعب السوري ضد الاستعمار لم يشغل الوطنين الأحرار عن الفن والإبداع، فقد عمل الموسيقيون إلى جانب فنهم وروحهم المرهفة ذات الإحساس العالي على رفع السلاح في وجه المحتل واستشهد الكثير منهم عام ١٩٤٥ على يد الفرنسيين حين كانوا يقاتلون من أجل تراب الوطن والحرية والاستقلال، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر/عازف الكلارنيت طارق مدحة/، الذي استشهد وهو يدافع عن رمز الأمة (المجلس النيابي)، إلا أنني سأتحدث عن شخصية وطنية هامة في تاريخ سورية المعاصر، رغم عملها بحقل السياسة والنضال اهتمت بالجانب الموسيقي والفني ألا وهو الوطني الكبير فخري البارودي /١٨٨٥- ١٩٦٥/ الذي شغل العالم بروحه الوطنية إذ كان يقيم العديد من الندوات الجميلة لأهل الأدب والفن في منزله الكائن بحي القنوات.

وفي أعقاب الثورة السورية الكبرى وتحديداً عام ١٩٢٨ أسس فخري البارودي مع الموسيقي الشهير توفيق الصباغ /النادي

الموسيقي السوري الشرقي/ والذي أغلقته السلطات الفرنسية بعد عامين من إقامته لما كان له تأثير عليهم، وبعد أن سمح الفرنسيون بإقامة الأندية كان سباقاً إلى دعم تلك الأندية اجتماعياً ومادياً ومعنوياً، فقد أقيمت العديد من الأندية الموسيقية منها: /النادي الموسيقي السوري عام ١٩٢٨، ونادي الموسيقي الفني عام ١٩٣٠، و نادي نهضة الموسيقا عام ١٩٣١، ونادي دار الألحان والتمثيل عام ١٩٣١، ثم معهد الآداب والفنون عام ١٩٣٧، ومعهد أصدقاء الفنون عام ١٩٣٩، ونادي الفارابي عام ١٩٤٠/.

وعندما انتخب فخري البارودي نائباً عن دمشق عام ١٩٤٣ نجح بنفوذه السياسي والاجتماعي وكسر حاجز التقليد لينتزع من المجلس النيابي بعد جلسة حامية من الصراع الموافقة بتأسيس أول معهد رسمي للموسيقا يتبع لوزارة المعارف تحت اسم /المعهد الموسيقي/ وكان ذلك عام ١٩٤٧، وأشرف بنفسه وترأس مجلس إدارته لمدة عامين، ومن خلال الفنانين المبدعين أمثال: عمر البطش، ومجدي العقيلي، وسعيد فرحات، وعزيز غنام، كرس المعهد لإحياء الأعمال التراثية كالموشحات والقدود وفن رقص السماح والأدوار، مما دفع الموسيقي سعيد فرحات بتلحين موشح من نظم فخري البارودي تقديراً له ولجهوده في رعاية الفن والموسيقا وجاء هذا الموشح على مقام العجم إذ يقول فيه:

وغزال كلما ألقاه يزوي مقلتيه
قاطباً عن غير قصد أو بعمد حاجبيه
وإذا سلمت ثارت حسرة في وجنتيه
لست أدري أي ذنب كان لي يوماً لديه
ما عليه لو حباني قبلة ماذا عليه
بين موتي وحياتي لفظة من شفتيه

وفي ذلك العصر برز أيضاً مبدعين حافظوا على التراث الموسيقي غير الغنائي منهم: شفيق شبيب، توفيق الصباغ، عمر النقشبندي، واستطاعوا أن يجسدوا قوالب التأليف في الموسيقا العربية حين قاموا بإحياء البشارف واللونغا والسماعيات وغيرهم.

وفي عام ١٩٤٩ أغلق المعهد بسبب الصراعات السياسية البرجوازية، إلى أن فخري البارودي لم يقف مكتوف الأيدي بل عمد في عام ١٩٥٠ إلى فتح المعهد الموسيقي من جديد وعلى الرغم من مرضه الذي أتعبه وبجهد كبير أصدر المرسوم الجمهوري التنظيمي رقم /٨٤٦/ تاريخ ٩/١٢/١٩٥٠ والذي نص على تأسيس المعهد الموسيقي الشرقي في دمشق، وبتاريخ ٣٠/١٢/١٩٥٠ أصدر وزير المعارف قراراً بتسمية /إحسان البزرة/ مديراً للمعهد، وهكذا تم تأسيس /المعهد الموسيقي الشرقي/.

شكل مديره آنذاك لجنة لدراسة مناهج معهد الفنون الجميلة في بغداد، ومناهج المعاهد المصرية برئاسة /يوسف بتروني/ وعضوية كلاً من: /عبد الغني شعبان، محمد العقاد، يحيى السعودي، سعيد فرحات، شوقي أفزه، وثلاثة خبراء نمساويون من حملة الشهادات العليا في الموسيقا من أكاديمية فيينا للموسيقا.

ثم أصدر قرار بتسمية الموسيقار الفلسطيني الراحل (يوسف بتروني) المدير الفني للمعهد لتنفيذ البرامج والمناهج، والموسيقي الفلسطيني الراحل(يحيى السعودي) مستشاراً فنياً ومدرساً لمادة العود ولعلوم

الموسيقا الشرقية والموشحات، وخصص (فؤاد محفوظ، ومحمد النحاس) لتدريس آلة العود، والموسيقي المصري (محمد العقاد) لتدريس آلة القانون، ويساعده (تيسر كركوتلي والموسيقي اللبناني عبد الغني شعبان) ويقوم (حسن زركلي) بتدريس الصولفيج والسوري المرحوم (سعيد فرحات) بتدريس قواعد الموسيقا الشرقية والموشحات، و(فائز الأسطواني) تدريس الكمان بالأسلوب الشرقي، و(عبد الوهاب سيفي) تدريس فن رقص السماح، والتركي (شوقي أفزة) آلة الناي، و(فيلكس خوري) آلتي الكمان الجهير (فيولونسيل) والكمان الأجهر كونتر باص، و(نسيب الاختيار) يدرس تاريخ الأدب الموسيقي في الوطن العربي، أما الخبراء النمساويون فقد خصصوا لتدريس البيانو وآلتي الكمان الجهير والكمان بالأسلوب الغربي.

قام المعهد بوضع نظام داخلي خاص به يتضمن مجموعة من البنود التي توجب الالتزام بها منها:

- تحديد دراسة المعهد لأربع سنوات يتلقى بها الطالب دروساً نظرية وعملية.
- اعتبار نظريات الموسيقا الشرقية وقواعدها الأساس في الدراسة.
- اعتماد تدريس الموسيقا الشرقية على مفتاح (صول Sol) والدراسة النظرية والعملية إلزامية لجميع الطلاب.
- فرض تعليم فن رقص السماح على جميع الطلاب دون استثناء، وأن يتم ذلك من خلال الإيقاعات الشرقية الفنية التي تدرس سنة بعد سنة.

أفتتح المعهد أبوابه في الخامس عشر من آذار عام ١٩٥١، وانتسب إليه في العام الأول /١٢٠/ طالباً وارتفع إلى /٣٠٠/ طالب في العام الذي يليه ١٩٥٢، شريطة أن يتقاضى الطالب المتفوق راتباً شهرياً بما لا يزيد عن /١٠٠/ ليرة سورية وكان من بين المتفوقين والذين أصبحوا من أعلام الموسيقا في دمشق بل يمكن القول في سورية منهم عازف الناي الشهير عبد السلام سفر، وعازف القانون عدنان ايلوش، وعازف الأوبوا البارع مطيع المصري، وثلاثة برعوا في فن رقص السماح وهم /عدنان وزهير منيني وعمر العقاد/.

استمر المعهد في نشاطه وإنتاجه حوالي ثماني سنوات وتعاقب عليه أربع مديرين حيث كان من أبرزهم /إحسان البزرة/ الذي استقال في الثلاثين من كانون الأول عام ١٩٥٣ ليتولى بعده المربي الأستاذ /عز الدين العطار/، ليعود إليه /إحسان البزرة/ من جديد حتى عام ١٩٥٥ تقريباً ، حيث كلف بإدارة المعهد الأستاذ (محمد كامل القدسي) وهو المتمرس بالموسيقا الشرقية والغربية لغاية عام ١٩٥٧ ليتولى الأستاذ (مجدي العقيلي) إداراته حتى إغلاقه عام ١٩٥٩.

وللعلم لقد استطاع المعهد أن يجعل من خريجيه نجوماً في الموسيقا، واستلموا دفة الحياة الموسيقية حتى وفاة بعضهم والباقي أطال الله في عمره ما زال يقدم ويساهم في رفد الحركة الموسيقية بأعماله الفنية منهم على سبيل المثال:

/أمين الخياط، عدنان أيلوش، عدنان أبو الشامات، عدنان منيني، نمر كركي، صبحي جارور، هشام حموي، إبراهيم جودت ونزار موره لي، والفنان الكبير صباح فخري الذي تكنى بمؤسس المعهد فخري البارودي/.

أكد الأستاذ صميم الشريف في كتابه أعلام الموسيقا في سورية على أن

المعهد العربي للموسيقا تم تأسيسه وفق ما يلي:

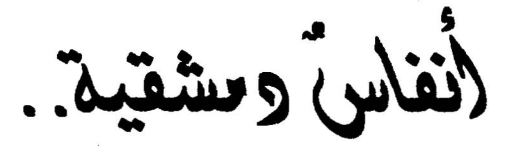
أنيط بوزارة الثقافة والإرشاد القومي التي تأسست في زمن الوحدة عام ١٩٥٨، تأسيس المعاهد الموسيقية، وقد وفد إلى دمشق من القاهرة آنذاك الموسيقي الراحل أبو بكر خيرت للمساعدة في تأسيس أول معهد عربي للموسيقا يتبع لوزارة الثقافة، ووقع اختيار الوزارة على الأستاذ صلحي الوادي (١٩٣٤) الذي تخرج حديثاً من الأكاديمية الملكية البريطانية للموسيقا ليتولى إدارته، وباشر عمله فعلياً في العام الدراسي ١٩٦٠ - ١٩٦١ وفق أحدث الطرق العلمية المتبعة في المعاهد الموسيقية في العالم بالنسبة للمرحلتين الابتدائية والإعدادية، ووفق مناهج تعليمية دقيقة في الموسيقتين الغربية والشرقية، ومازال هذا المعهد يعمل ويخرج العشرات من الموسقيين كل عام.

أما المعهد العالي للموسيقى:

فقد أصدر الرئيس الخالد حافظ الأسد في السادس عشر من شهر تشرين الثاني - نوفمبر - عام ١٩٩٠، القانون رقم ٨٢ لعام ١٩٩٠ ، المتضمن إحداث المعهد العالي للموسيقا ، وأنيطت عمادة المعهد للمايسترو "صلحي الوادي" الذي عمل منذ العام الدراسي الأول (١٩٩٠ - ١٩٩١) على الارتقاء بمستوى الموسيقا السورية والموسيقيين عزفاً وعلماً وتأليفاً، وبعد سنة على ذلك، أنشئ معهد الباليه الذي أنيطت عمادته أيضاً بصلحي الوادي، وقد قام المعهدان إضافة للمعهد العربي الموسيقي، بتدريس العزف بالعود والقانون والبزق والناي والآلات الإيقاعية والغناء والنظريات الموسيقية الشرقية، وكل ما يتعلق بالموسيقا التي تمت بصلة للموسيقى العربية، إلى جانب تدريس العزف بجميع الآلات الموسيقية الغربية (أسرة الكمان برمتها) والهارب، والأرغن، وجميع الآلات النفخية الخشبية والنحاسية، والتمباني، والآلات الإيقاعية الأخرى.

افتتح المعهد بمبادرة من عميده في العام الدراسي (١٩٩١ - ١٩٩٢) قسماً للغناء العربي وأساليبه، وجاء هذا القسم مطلباً حيوياً للأصوات المتميزة، التي حققت فيما بعد تفوقاً ملحوظاً على المستوى العالي في الجزائر التي حصلت عليها من وراء المغنيات الدمشقيات، لبانة قنطار وسوزان حداد ورشا رزق وقد تزامن افتتاح هذا القسم مع تدريس العلوم الموسيقية الأكاديمية إضافة إلى تاريخ الموسيقتين العربية والغربية - وقد استعان المعهد خلال مسيرته بالخبراء الذين ساهموا بوصول المعهد وعازفيه والدارسين فيه إلى المستوى الجيد، فتخرجت الدفعة الأولى وعددها أربعة عشر خريجاً عام ١٩٩٥، في مختلف الاختصاصات لتزداد أعدادهم نمواً في السنوات اللاحقة، ويمكن القول أنه استطاع الموسيقار الراحل صلحي الوادي أن يثبت دعائم الموسيقا في سورية من خلال عطاءه وعلمه، ليصل به المطاف إلى تأسيس المعهد العالي للموسيقا.

أخيراً.. إن دمشق بأبنائها ورجالها يشهد التاريخ لها بما قدمته من دماء وطنية ضد الاحتلال العثماني والفرنسي وبمواقفها الوطنية ضد أشكال الاستعمار الحديث المتمثل بأمريكا وأعوانها إسرائيل، وما زالت تضحي من أجل موقفها الوطني الثابت في وجه المخططات الإمبريالية الصهيونية، فهي عاصمة الثقافة، وعاصمة الموقف، وعاصمة التاريخ.


أنفاسٌ دمشقية..

شعر: حسن الخليل

تنفـــــست عطـــــرك كاليـــــاسمين

تنفـــــست أنفاســـــك الطيبـــــات

تنفـــــست هـــــذا النـــــسيم النقـــــيّ

وعـــــشتك حبـــــاً فريـــــد الـــــصفات

أضـــــعت بحبـــــك لـــــبي ورشـــــدي

كقـــــيس يهـــــيم بتلـــــك الفـــــلاة

كأنـــــك يـــــا شـــــام قبلـــــة صـــــبح

وســـــؤدد قلـــــب، وفجـــــر حيـــــاة

تراثـــــك كنـــــز عريـــــق ثمـــــين

وأهلـــــك للمجـــــد، دومـــــاً سُـــــعاة

فهـــــذا هـــــشام وذاك يزيـــــد

مـــــع الفجـــــر هبّـــــوا ســـــراة غـــــزاة

تغنـــــت بمجـــــدك كـــــل العـــــصور

ورددت الأرض نـــــصر الكمـــــاة







كتبتـــك حرفـــاً بخـــط جميــــل
قرأتـــك اسمـــاً بكـــل اللغـــات
رسمتـــك في الكـــون لوحـــة فـــن
لوجـــه تجلـــى بـــأحلى سمـــات

وجـــدتك أنّـــى ذهبـــت أمـــامي
ســـراجاً مـــنيراً بكـــل الجهـــات
ونبعـــاً غزيـــراً يجـــود علينـــا
بخـــيرٍ عمـــيمٍ، ومـــاءٍ فـــرات

صـــباحك فـــلّ وباقـــة ورد
ويومـــك ســـعي.. ونـــبض حيـــاة
وليلـــك ســـحر، وســـر وجـــود
وهمـــس محـــب.. ووحـــي صـــلاة

فأنـــت الجمـــال وأنـــت الكمـــال
وســـيف يـــزين كـــف الأبـــاة
ودار الوليـــد الـــتي ذاد عنهـــا
رجـــال عظـــام كبـــار رمـــاة
وأنـــت الكتـــاب الـــذي فيـــه عـــشقي
وأنـــدر مـــا قـــد رواه الـــرواة







دمشق...

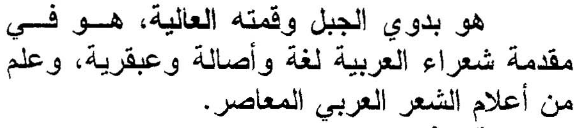
شعر: محمد عبد الستار طكو

عينـــاي تهـــوى اليـــاسمين وتعـــشقُ
ارضـــاً بهـــا طـــاف الحمـــام يـــصفقُ
أرض الـــشآم بهيـــةٌ برياضـــها
وعلـــى الأنـــام غلالهـــا هـــي تغـدق
بلـــد الـــسلام وكـــلّ بيـــت آمـــنٍ
يهـــذي هـــوىً والعـــشق عنـــده يـــورق
يـــا ربّ يـــومٍ بالـــشآم تظللـــني
أشـــجار تـــوتٍ والقرنفـــل يعبـــق
فجلـــست أشـــكو لـــوعتي وأبثهـــا
شـــوقي إليهـــا مـــوج بحـــرٍ يغـــرق
فـــدنا إلـــي الغـــصن هونـــاً وانحنـــى
طربـــاً يهـــادن مهجـــتي ويرتـــق
مـــسح الـــدموع بورقـــةٍ مـــن بعـــضه
وأزاح همّـــاً في الفـــؤاد يعتّـــق
وســـقى الـــسقيم بـــشربةٍ مـــن مائـــه
فأعـــادني طفـــلاً غـــدا يتـــسلق
شـــجراً مـــن التـــوت الدمـــشقيّ الـــذي
نـــال الـــصغير وكـــان قـــبلاً يرمـــق
فعمـــي صـــباحاً كـــل حـــينٍ مهجـــتي
أنـــت الهـــوى والعاشـــقون تـــدفقوا




عشق الشآم عند بدوي الجبل

بقلم:
ندى محمد عادلة



هو بدوي الجبل وقمته العالية، هو في مقدمة شعراء العربية لغة وأصالة وعبقرية، وعلم من أعلام الشعر العربي المعاصر.

قال فيه الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري (إنه أكبر شاعر في هذا العصر).

وقال فيه نزار قباني: "بدوي الجبل السيف اليماني الوحيد المعلق على جدار الشعر العربي في حنجرته ألف لبيد، وألف شريف رضي، وألف أبي تمام، لا تستطيع إلا أن ترفع قبعتك وتنحني باحترام أمام عبقريته"

يقف زكي قنصل أمام إبداعه العبقري ويقول في محراب شعره:

أيها الشاعر الذي جنح الحرف
وأحيا جزالة القدماء
والذي طوق النجوم بعقد
خالد من بيانه الوضاء
يا سليل العلى يحييك شعب
ليس من ينسى فضائل العظماء

بدوي الجبل قلب العروبة النابض شاعر دمشق الفيحاء أكبر من أي دراسة وأعمق من أي أسلوب يخطه قلم. ولكن متعة القراءة للعظماء تتطلب تذكرهم بشيء من الوفاء والمحبة، ألم يقل في عيد الجلاء وفي دمشق التي وهبها الله صفات من صفاته:

الزغاريد فقد جنّ الإباء
من صفات الله هذي الكبرياء
هي في غسان بأسى وندى
وهي في الإسلام فتح وبلاد
جمرة الحق فسبحان الذي
صاغ هذا الجمر من ظل وماء

قوي في أسلوبه، دقيق في تعبيره، بديع في صياغته، بارع في الوصف والتصوير وعميق في ما يرى، ينقلك في ألفاظه الساحرة إلى عوالم من جنة فردوس وينقلك بخياله الوثاب إلى الشآم قبلة العرب في الدنيا وقبلة الله في الأرض وآمال

العرب في الوحدة القومية التي كان ينشدها منذ صغره:

يا آمي يا قبلة الله للدنيا
ويا راحها المصفى العتيقا
أترع الكأس من هواك لتروي
كبدي من هواك لا لتذوقا
مزقيها تغمرك طيباً ونوراً
لا تملي الطيوب والتمزيقا

الشآم هي قبلة العرب وموطن النضال من أجل إعلاء الحق الشآم جنة الله في الأرض فكيف لا يفتخر ويعتز الشاعر الكبير بدوي الجبل بانتمائه إليها وكيف لا يكبر فيها وهو سليل عروبتها وسليل العلياء والشموخ فيها:

كبريائي فوق النجوم ولولاها
لما كنت بالنجوم حليقا

الشاعر بدوي الجبل أو محمد سليمان الأحمد هو في مقدمة الشعراء المناضلين من أجل الحرية والاستقلال وهو من سلالة أسرة عريقة الجذور في الأخلاق العربية الأصيلة التي يهون عليها الموت وتعشقه إذا كان فيه حرية الوطن واستقلاله. لقد ناضل بدوي الجبل بقلمه وفكره واستبعد عن الوطن الشآمي الذي عشقه فكانت الغربة منهلا والحنين حباً والبعاد تواصلا وشعراً ووفاء لأرض الانتماء.

تطوحني الأسفار شرقاً ومغربا
ولكن قلبي بالشآم مقيم

والحزن صعب وصمت الحزن أصعب في أن يعيش الشاعر دونٍ حب لكنه بدوِي الجبل كانت فلسفته في الحب عقلا وإيمانه عميقاً أن كل عطاء من شخص إلى آخر يصدر من الحب وبغير الحب كل شيءٍ باطل إن قلبي خميلة تنبت الأحزان ورداً ونرجساً وشقيقا.

لو على الصخر نهلة من جراحي
راح مخضوضل الظلال وريقا

إنها ألفاظ جميلة وسهلة وممتعة لا تتضمن تعقيداً أو تكلفاً كقلب الشاعر عذبة ونقية بنسيج رائع، الوطن غال وقوة غلاوته حين الابتعاد عنه لسبب ما وبدوي الجبل كان في جنيف عندما تمنى أن تأتيه نسمة عليلة من الشرق تحمل ذرات تراب وطنه الشام.

يا شام يا لدة الخلود وضم مجدكما انتساب
من لي بنزر من ثراك وقد ألح بي اغتراب
فأشمه وكأنه لعس النواهد والملاب
وأضمه فترى الجواهر كيف يكتنز التراب

الغربة قاسية والحنين إلى الجذور والانتماء جمر واتقاد في المشاعر:

فإلى متى يبقى الربيع مشرداً
وإلى متى يبقى الفؤاد معذباً
وإلى متى يبقى العبير مسافراً
وإلى متى يبقى الضياء مسائلاً

الوطن بالنسبة للشاعر الكبير أغنية عاشق وصلاة متصوف وكما قال فيه نزار قباني: "إنه الشريف الرضي وأبو تمام ولبيد وأنا أضيف إليه عنترة العيسي:

حننت إلى رباك والسيف مصلت
وقد يعذر التأني الغريب إذا حنا

دمشق فريدة بين العواصم بحضارتها هي النهج للثورات وهي موطن الحب والأمل ودمشق بوابة التاريخ على العوالم:

يا رب عزَ من أمية لا انطوى
ويا رب نور وهج الشرق لا خبا
وأعشق برق الشام إذا كان ممطراً
حنوناً بسقياه وإن كان خلبا

وتمر الليالي الطوال على شاعرنا الكبير ويعود للوطن بعد الغربة والإبعاد ويرى نفسه بين أهله وأصدقائه وفي قلب المدينة التي أحبها حتى الموت ووهبها جل حياته دمشق التاريخ دمشق العروبة والمجد بأبنائها وفرسانها الميامين.

حلفت بالشام هذا القلب ما همدا
عندي بقايا من الجمر الذي اتقدا

لقد انكب فوق أرض الشام وقبلها وسقاها من نبع وفائه وجداول حنينه بكؤوس مترعة من الشوق والوجد.

عاد الغريب ولم تظمأ سريرته
فقد حملت بها في غربتي بردى

لقد سجن في جزيرة أرواد مع مجموعة من الوطنيين الأحرار عام ١٩٢٢ وسجن في حماة إبان الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ وعندما لاحقت فرنسا الثوار الوطنيين الأحرار في عام ١٩٣٩ فر إلى العراق وعمل هناك مدرساً وشارك في ثورة رشيد الكيلاني وعاد إلى سوريا ليقع في أصفاد السجن من جديد، حيث اعتقله الفرنسيون عام ١٩٤٢ وقد صادرت القوات الفرنسية ديوانه الشعري الأول لأنه نار ولهيب على صدور الغزاة وكم من المرات فر هارباً إلى لبنان عام ١٩٤٩، وفي عهد الانفصال عام ١٩٦١ منع من العودة إلى البلاد، وعاد الشاعر أخيراً إلى وطنه وأدمته هزيمة حزيران فأطلق عاصفته عام ١٩٦٧ (من وحي الهزيمة) في مئة وثلاثة وستين بيتاً فيها من الحجارة والقنابل والبراكين وفيها الحب والحنين ودموع الأنين.

من روح البلبل الهاني وأجفله
عن أيكة وسقاه الحتف لو وردا
جلاني الظلم أشلاء ممزقة
واحتز أكرمهن: القلب والولدا

لكن الشاعر ظل مؤمناً بعقيدة النضال وقدسيته وهو المؤمن بجلاء الحق وسطوع الحقيقة مهما كانت قساوة الدهر.

ثراك والدر ما هاتا وإن ظلما
وأنت النور ما ضاعا وإن حمدا

إنها الأرض الأبية التي ضمتنا ورعتنا إنها الشآم أرض الأجداد والأبناء والأحفاد وتستحق أن نسجن ونموت من أجلها، نحن نعبد الله الواحد وبعده لن نعبد إلا تراب الوطن ولن تنحني أجسادنا إلا لله والوطن.

يسومنا الصنم الطاغي عبادته
لن تعبد الشام إلا الواحد الأحد
وجه الشآم الذي رفت بشاشته
من النعيم لغير الله ما سجدا

الحب شيء جميل ورائع والحب من قدسية الكون والعالم ولابد للمحب من أن يعشق في محبوبه أشياء وأشياء يميز فيها عن الآخر والحب تميز في قلب كل إنسان فما بالك بالشاعر لقد وجد شاعرنا الكبير في دمشق الثورة ودمشق التاريخ والإباء دمشق الكرم والوفاء ودمشق الغوطة الخضراء وبردى يرسم على أرضها ألوان الطبيعة الساحرة ويجمل بساتينها بكل ألوان الحب والنقاء.

يا شآمي يا قبلة الله للدنيا
ويا راحها المصفى العتيقا
أترع الكأس من هواك لتروي
كبدي من هواك لا لتذوقا
مزقيها تغمرك طيباً ونوراً
لا تملي الطيوب والتمزيقا

إن شموخ الشاعر من شموخ وطنه وكبريائه:

كبريائي فوق النجوم ولولاها
لما كنت بالنجوم خليقا

وأهل الشآم أهل الجود والوفاء حافظوا على قيمهم العربية الأصيلة يجودون بسخاء ولا يسألونك ردا

فيا واردي ماء الشآم رويتهم

فلله ما أصفى ولله ما أهنى

ويا ناظري غيد الشآم نعمتم

فلله ما أبهى ولله ما أسنى

لا تلوموا العاشق في عشقه خاصة إذا كان شاعراً كبيراً وكان حب الأرض لديه عشقاً متوارثاً أضفى عليه من روحه الوجد والشوق والهيام، ماذا أحب بدوي الجبل في دياره أرض الشآم..؟ لقد أحب كل شيء في الطبيعة، الأرض والسماء، الروابي والجبال والغيد الحسان:

لا تلمه إذا أحب الشآم

طابت الشام مربعاً ومقاما

ما رأينا الشآم إلا رأينا

منزلاً طيباً وأهلاً كراما

بردى والورود في ضفتيه

مصغيات لشعره والخزامى

هات حدث عن الشآم وحدث

وأطل في الحديث عنها الكلاما

عن رباها عن غيدها سارحات

يتهادين في الحمى آراما

لقد عرف الشاعر الحب لأول مرة في دمشق:

ما عرفت الغراما لولا رباها

من ربى جلق عرفت الغراما

أعطني في ربوع جلق يوماً

يا خليلي وخذ من العمر عاما

لقد أحب الشاعر جلق الشام ببراءة الأطفال ومصداقية القديسين أحبها حبا لا أصدق ولا أسمى:

لقد زعموا أني بجلق هائم

أجل والهوى إني بجلق هائم

وفيت بعهد الغوطتين وهذه

شهودي القوافي والدموع السواجم

أحب الشام بدوي الجبل وأحبته وظللته بأفيائها وكان شاعراً كبيراً وفياً أعطاها أحلامه ومشاعره بصدق وإخلاص لأنه يعرف أنها الموطن الأول للإنسان والأبجدية الأولى في التاريخ، الشام أبية عصية على كل من يقترب منها عربية الجذور والمنشأ أصيلة، معروفة ببسالة وقوة أبنائها.

عربية الأنساب تطرب للوغى

في جاهليتها وفي إسلامها

فإذا أراد زمانها ذو قوة

شمست على الباغي بفضل زمانها

ويقول أيضاً إذا بقيت الشام شامخة وظل مجدها فلا خوف في ذلك على مستقبل الأمة العربية:

إذا ظل مجد العرب في الشام سالماً

فمجد بني قحطان في الشرق سالم

الشاعر بدوي الجبل أحب الشام وأهلها وأحب الوطن من محيطه إلى خليجه وتغنى بالوحدة العربية وكانت حلماً كبيراً له في حياته وما نقلته الآن مما قاله الشاعر عن دمشق غيض من فيض أنهار وجداول عن الشآم وعن الوطن والحب والحياة لوّنها بحروف من جمال عربية المنشأ والأخلاق والشمائل:

أيها الدنيا ارشفي من كأسنا

إن عطر الشام من عطر السما

عربي الدار والأهل معاً

والرحيق المشتهي والندماء

آل مروان جلال وندى

وبنو العباس هدي وضياء.




قالوا: تحب الشام؟

شعر: بشارة الخوري

سلْ عن قديمِ هوايَ هذا الوادي | هلْ كان يخفقُ فيه غيرُ فؤادي

عهدَ الطفولةِ في الهوى كم ليلةٍ | مرتْ لنا ذهبيةَ الأبراد

إذ نحنُ أهونُ أن نحركَ ساكناً | في حاسدٍ أو غلةً في صاد

تتضاحكُ الزهرُ النجومُ لأدمعي | في جيدها، فإخالُها حسَّادي

وأكاد أمتشقُ الغصونَ تشفياً | لتهامسِ الأوراق في الأعواد

غرانِ نمرحُ في الهوى وفتونهِ | وعلى خدودِ الوردِ والأجياد

ونحسُّ بالبينِ المُشتِّ فلا نرى | غير العناق على النَّوى من زاد

نتخاطف القُبلَ الصباحَ كصبيةٍ | يتخاطفون هديةَ الأعياد

متواثبينِ كطائريْن تشابكا | وتضاربَ المنقادُ بالمنقاد

أنا مذْ أتيتُ النهرَ آخرَ ليلةٍ | كانت لنا ذكرتهُ إنشادي

وسألتهُ عن ضفتيه: ألم يزلْ | لي فيهما أرجوحتي ووسادي








فبكى لِيَ النهرُ الحنونُ توجُّعاً ... لما رأى هذا الشحوب البادي

ورأى مكان الفاحماتِ بمفرقي ... تلك البقيةَ من جُذى ورماد

تلك العشيةُ ما تُزايل خاطري ... في سفح دمر والضفاف هوادي

شفافة اللمحات نيّرةَ الرؤى ... ريّا الهوى أزليةَ الميلاد

أبداً يطوفُ خيالُها بنواظري ... فأحلُّهُ بين الكرى وسهادي

وأهمّ أرشفُ مقلتَيْهِ وثغرهُ ... فيغوصُ في أفقٍ من الأبعاد

إيهٍ خيالَ المانعي طيبَ الكرى ... أيتاحُ لي رُجعى مع الورّاد

لي في قرارِ الكأسِ بعدُ بقيةٌ ... سمحتْ بها الآلامُ للعُواد

حنَّتْ لها خُضرُ الدوالي رقةً ... وبكى لها جفنُ النسيمِ النادي

هي كنهُ إحساسي وروحُ قصائدي ... ومطافُ أحلامي وركنُ ودادي

للشعرِ منطلقُ الجوانحِ هائماً ... بين السواقي الخضرِ والأوراد

متخيراً منهنّ ما ابتكَرَ الضُحى ... من لؤلؤٍ غبّ السحابِ الغادي

أندى على جفنٍ يساورهُ الأسى ... وأخفُّ من مرحِ الهَزار الشادي

بردى هلِ الخُلدُ الذي وُعِدوا به ... إلاكَ بين شوادنٍ وشوادي

قالوا: تحبُّ الشامَ؟ قلتُ: جوانحي ... مقصوصةٌ فيها وقلتُ: فؤادي



